الجزء ١٠ المجلد ٩



(دمشق) ايلول : سنة ١٩٢٩ م الموافق للربيعين سنة ١٣٤٨ هـ

عبد الحميد الكاتب

- ٢ -

رسالته في نصيحة ولي العهد في الفصل الذي عقدناه في نشأة عبد الحميد الاكبر وعصره وكتابته وأسلوبه عرضنا للاستشهاد ببعض رسائله الصغيرة المأثورة . وهانحن اولاء نتوخى هنا تحليل أدبه من رسالتين كبيرتين مما أبقت الايام عليه واغتبطنا بعد اثني عشر قرناً ان نتعرف منه سعة مادة الكاتب المظيم وطول نفسه وبعد مراميه في الثقافة وانه رجل متنابع[1] العلم آخذ من كل فن بنصيب وافر . والرسالتان هما رسالته في نصيحة ولي العهد ورسالته الى الكتاب . والاولى منهما أطول رسالة ابقت عليها الايام من انشاء سيد الكتاب عبد الحميد الاكبر كتبها على لسان مروان الى ابنه وولي عهده عبد الله بن مروان ، لما وجهه الى قتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي وكان هذا استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٧ . وقد انطوت هذه الرسالة المرقصة على أغراض كثيرة يمكن اجمالها في موضوعين مهمين الاول درس عظيم في تربية ابناء الملوك والعظماء وتلقينهم الأخلاق الفاضلة وهي الضمان الاعظم لقيام الممالك . والثاني وضع خطط حربية يسير عليها ولي العهد في قتال العدو ماترى المحدثين في المحاربين بلغوا اكثر منها في باب الكر والفر . فأثبت عبدالحميد بهذه الرسالة انه من علماء التربية والاخلاق وعلماء النفس

---

(١) يقال رجل متنابع العلم اذا كان يشبه علمه بعضه بعضاً .

وانه من علماء السياسة والادارة والحرب يستطيع ان يقود الجيوش بعقله كما يقود الممالك بقلمه ·

بدأ رسالته في وصف الخارجي وان الخليفة أراد ان يعهد الى ولي عهده عهداً يحمله فيه أدبه و يشرع له عظته وان كان ولي العهد في الغاية من الدين والتحلي بما يحسن بالخلافة ولو لم يكن كذلك ماخصه ابوه بالولاية عنه دون بني ابيه · وقال له ان الخليفة يوعظه ابنه ايضاً ائتمر بامر الله وما تقدمت فيه الحكماء من تقديم العظة والتذكير وان كانوا أهل معرفة واولي سابقة في الكمال وفضل في العلم قال : ولو كان المؤدبون اخذوا العلم من عند انفسهم ولقنوه إلهاماً من تلقائهم ولم يتعلموا شيئاً من عند غيرهم لنحلناهم علم الغيب ووضعناهم بمنزلة قصرهم بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته في الاهيته ··· واستعماله ألفاظ الوحدانية والفردانية والالاهية من استعمال المحدثين لا عهد بها للعرب ·

قال : وامير المؤمنين يرجو ان ينزهك الله عن كل قبح يهش له طمع ، وان يعصمك من كل مكروه حاق باحد ، وان يحصنك من كل آفة استولت على امرىء في دين او خلق وان يبلغه فيك احسن مالم يزل يعوّده من آثار نعمة الله عليك سامية بك الى ذروة الشرف ومنجحة لك بسطة الكرم لائحة بك في ازهر معالي الادب مورثة لك انفس ذخائر العز · وبعد ان كان الخليفة يخاطب ابنه بصيغة الغائب انقلب وخاطبه خطاب الحاضر فقال : (والله استخلف عليك واسأله حياطتك وان يعصمك من زيغ الهوى ويحضرك دواعي التوفيق معاناً على الارشاد فيه فانه لا يعين على الخير ولا يوفق له الا هو) · وهذا الانقلاب في تنويع الخطاب من اجمل ما يبدر على أسلات اقلام الكتاب · ذلك ان الخليفة بعد ان خاطب ابنه خطابه عاملاً من عماله عاد فذكر البنوة فدعا له دعاء والد لولده ليوفق في مقاصده و يسلم في بدنه ·

ثم هوّن عليه الامر وابان له قدر نفسه وما تيسر له من اسباب التفوق باخلاقه فقال : وقد تلقتك اخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها من غير تعب البحث في ادراكها ولا متطاول المنال لذروتها بل تأثلت [1] منها اكرم معانيها واستخلصت منها اعتق

(١) تأثلت اكتسبت ·

جواهرها ثم شمرت الى لباب مصاصهـا واحرزت مَنْفَس[1] ذخائرها فاقتعد ما احرزت ونافس فيما اصبت ٠

ومما قدمه له من العظة في ذلك ان يشكر الله في كل صباح على نعمة السلامة والعافية وان يقرأ فيه من كتاب الله جزءاً يردد فيه رأيه في ادبه ويزين لفظه بقراءته ويحضر عقله ناظراً في محكمه ويتفهمه متفكراً في متشابهه ٠ يريد بذلك تقوية عقيدته في الدين وتقوية ملكته في البلاغة ٠

وبعد ذلك التفت فقال : « ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك فانه مغلاق[2] الحسنات ومفتاح السيئات واعلم ان كل اهوائك لك عدو يحاول هلكتك ويعترض غفلتك لانها خدع ابليس وحبائل مكره ومصايد مكيدته فاحذرها مجانباً لها وتوقها محترساً منها واستعذ بالله من شرها وجاهدها اذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه وحزم نافذ لا مثنوية[3] لرأيك بعد اصداره عليك وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه ومضاءة صارمة لا أناة معها ، ونية صحيحة لا خلجة[4] شك فيها فان ذلك ظِهريٌ[5] صدق لك على ردها عنك وقطعها دون ما تتطلع اليه منك وهي واقيـة لك سخطة ربك داعية لك رضا العامة ساترة عليك عيب من دونك ٠٠٠٠ فحاول بلوغ غايتها محرزاً لها بسبق الطلب الى اصابة الموضع محصناً اعمالك من العجب فانه رأس الهوى واول الغواية ومقاد الهلكة حارساً اخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي العادات » ٠

« ومنها ان تملك امورك بالقصد وتصون سرك بالكتمان وتداوي جندك بالانصاف وتذلل نفسك بالعدل وتحصن عيوبك بتقويم أودك وأناتك فوقها الملال وفوت العمل ومضاءتك فدرّعها روية النظر واكنفها بأناة الحلم وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتياد الراحة وصمتك فانف عنه عيّ اللفظ وخف فيه سوء القـالة[6] واستماعك فارعه[7] حسن التفهم وقوّه باشهاد الفكر وعطاءك فانهد[8] له بيوتات الشرف وذوي الحسب

---

(١) منفس مايتنافس فيه ٠ (٢) المغلاق بكسر الميم مايغلق به الباب ٠ (٣) مثنوية استثناء ٠ (٤) خلجة اضطراب ٠ (٥) ظهريٌ عدة ٠ (٦) القالة يطلق القول في الخير والقال والقيل والقالة في الشر ٠ (٧) اسمعه ٠ (٨) نهد الهدية عظمها وأضخمها ٠

وتحرز فيه من السرف واستطالة البذخ وامتنان الصنيعة ، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصر ، وحلمك فزعه عن التهاون ، واحضره قوة الشكيمة [١] ، وعقوبتك فقصر بها عن الافراط ، وتعمد بها اهل الاستحقاق ، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق ، وخذ به واجب المفترض ، وأقم به أود الدين ، واستئناسك فامنع منه البذاءة وسوء المثافنة [٢] ، وتعهدك امورك فخذه اوقاتاً ، وقدره ساعات ، لا يستفرغ قوتك ، ويستدعي سآمتك ، وعزماتك فانف عنها عجلة الرأي ، ولجاجة الاقدام ، وفرحاتك فاشكمها [٣] عن البطر ، وقيدها عن الزهد ، وروعاتك فخطها من دهش الرأي ، واستسلام الخضوع ، وحذراتك فامنعها عن الجبن واعمد بها للحزم ، ورجاءك فقيده بخوف الفائت ، وامنعه من أمن الطلب) .

ثم ذكر له كيف يتخير عشراءه ويعامل مشاوريه ، ويتوقى انتشار اخباره في العامة ، الا على صورة لا تسقط من شأنه فقال : « ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك ، ودخلاؤك في سرك ، اهل الفقه والورع من خاصة اهل بيتك وعامة قوادك ، ممن قد حنكته السن بتصاريف الامور ، وخبطته فصالها بين فراسن [٤] البزل منها ، وقلبته الامور في فنونها ، وركب أطوارها عارفاً بمحاسن الامور ، ومواضع الرأي ، مأمون النصيحة ، مطويّ الضمير على الطاعة ، ثم احضرهم من نفسك وقاراً ، تستدعي منهم لك الهيبة ، واستئناساً يعطف اليك منهم بالمودة ، وانصاتاً يفل إفاضتهم عندك بما تكره ان ينتشر عنك من سخافة الرأي ، وضياع الحزم ، ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي ، ويقطعك دون الفكر . وتعلّم انك وان خلوت بسر فالقيت دونه سترك ، وأغلقت عليه أبوابك ، فذلك لا محالة مكشوف للعامة ، ظاهر عنك وان استترت بربما ولعل ، وما أرى اذاعة ذلك ، فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن ، فتقدم

---

(١) الشكيمة قوة القلب . (٢) المثافنة المباطنة وفي رواية المنافثة ومعناها الاذية .

(٣) يقال فعل فلان امراً فشكمته اي أثبته . (٤) الفرسن والجمع فراسن رجل الجمل والبزل كركع جمع بازل وهو البعير اذا ظهر نابه ومن المجاز الرجل الكامل في تجربته .

في إحكام ذلك من نفسك وسد خلله عنك ، فانه ليس احد أسرع اليه سوء القالة ولغط العامة بخير او شر ، ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت فيه من دين الله ، والامل المرجو المنتظر فيك » .

ثم حذره من مسائل لها مساس عظيم بمن لهم السلطان على الناس ، فكلمه في مسائل عامة تنتظم بسيره و بسيرته فقال له : « وإياك ان يغمز[1] احد من حامتك وبطانة خدمك ، بضعفة يجد بها مساغاً الى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه ، ولا تخلو من الأحدوثة لائمته ، ولا تأمن سوء فيه ، ولا يرخص سوء القالة فيه ، ان نجم ظاهراً ، او أعلن بادياً ، وان يجترئوا على تلك عندك ، الا ان يروا منك إصغاءً اليها ، وقبولاً لها ، وترخيصاً لهم في الإفاضة بها ، ثم اياك ان يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات ، والمزاح والمضاحك ، التي يستخف بها اهل البطالة ، و يتسرع نحوها ذوو الجهالة ، و يجد فيها اهل الحسد مقالاً لعيب يذيعونه ، ولطعن في حق يجحدونه ، مع ما في ذلك من نقص الرأي ودرن العرض ، وهدم الشرف وتأثيل الغفلة ، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم ، كمون النار في الحجر الصلد ، فاذا قدح لاح شرره ، وتلهب وميضه ووقد تضرمه ، وليست في احد أقوى سطوة ، وأظهر توقداً وأعلى كموناً ، واسرع اليه بالعيب ، ونطرق الشين ، منها الى من كان في سنك من أغفال الرجال ، وذوي العنفوان في الحداثة الذين لم يقع عليهم سمات الامور ناطقاً عليهم لائحها ، ظاهراً عليهم وسمها ، ولم تحضهم شهامتها ، مظهرة للعامة فضلهم ، مذيعة حسن الذكر عنهم ، ولم يبلغ بهم الصيت في الحنكة مستمعاً يدفعون به عن انفسهم نواطق السن اهل البغي ، ومواد ابصار اهل الحسد » .

وعاد بعد ان حذره من الخفة في المواكب ، ومداعبة من يسايره بالتضاحك اليه ، يريده على ان يستعمل الجد في حركاته ، بحيث لا تتقلقل جوارحه ويحذره من السعاية و يدله على الطريقة في معاملة النامين وعلى الترفع عن الجواسيس وصورة معاملتهم للاخذ منهم ماينفع مصلحة الدولة فقط ونهج له السبيل السوي في معاملة اصحاب الحاجات

(١) اغمز في فلان اذا عابه واستضعفه وصغر شأنه . والحامة القرابة والأسرة .

فقال : « واعلم ان قوماً سيسرعون اليك بالسعاية ويأتونك من قبيل النصيحة ، ويستميلونك باظهار الشفقة ويستدعونك بالاغراء والشبهة ويوطئونك عشوة [1] الحيرة ليجعلوك ذريعة لهم الى استئكال [2] العامة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة او اسرعوا بك في امره الى الظنة فلا يصلن الى مشافهتك ساع بشبهة ولا معروف بتهمة ولا منسوب الى بدعة فيعرضك لابتداع [3] في دينك ويحملك على رعيتك ما لا حقيقة فيه ويلحمك اعراض قوم لا علم لك بدخلهم الا بما أقدم به عليهم ساعياً واظهر لك منهم متنصحاً .

« وليكن صاحب شُرَطك ومن أحببت ان يتولى ذلك من قوادك اليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لاولئك والمستمع لاقاويلهم والفاحص عن نصائحك ثم ليُنْهِ ذلك اليك على ما يرتفع اليه منه لتأمره بامرك فيه وتقفه على رأيك من غير ان يظهر ذلك للعامة فان كان صواباً نالتك حظوته وان كان خطأ أقدم به عليك جاهل او فرطة سعى بها كاذب فنالت الساعي منها او المظلوم عقوبة او بدر من واتيك اليه عقوبة ونكال لم يعصب ذلك الخطأ بك ولم تنسب الى تفريط وخلوت من موضع الذم فيه محضراً اليه ذهنك وصواب رأيك وتقدم الى من تولى ذلك الامر وتعتمد عليه فيه ان لا يقدم على شيء ناظراً فيه ولا يحاول اخذ احد طارقاً له ولا يعاقب احداً منكلاً به ولا يخلي سبيل احد صافحاً عنه لاصحار [4] براءته وصحة طريقته حتى يرفع اليك امره وينهي اليك قضيته على جهة الصدق ومنحى الحق ويقين الخبر فان رأيت عليه سبيلاً لحبس او مجازاً لعقوبة امرته بتولي ذلك من غير ادخاله عليك ولا مشافهة لك منه فكان المتولي لذلك ولم يجر على يديك مكروه رأي ولا غلظة عقوبة وان وجدت الى العفو عنه سبيلاً اوكان مما قُرِف به خلياً كنت انت المتولي للانعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه باطلاق أمره فتوليت اجر ذلك واستحققت ذُخره وانطقت لسانه بشكرك وطوقت قومه حمدك واوجبت عليه حقك فقرنت

---

(١) العشوة الظلمة . (٢) استأكل الضعفاء اخذ اموالهم . (٣) في رواية لا يتاغ دينك . يقال اوتغه اهلكه وهذا مما يوتغ الدين والمروءة . (٤) الاصحار الوضوح .

بين خصلتين واحرزت خطوتين ثواب الله في الآخرة ومحمود الذكر في العاجلة .

« ثم واياك ان يصل اليك احد من جندك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك او حاجة يبدهك بطلبها حتى يرفعها قبل ذلك الى كاتبك الذي اهدفته لذلك ونصبته له فيعرضها عليك منهياً لها على جهة الصدق عنها وتكون على معرفة من قدرها فان أردت اسعافه بها ونجاح ما سأل منها أذنت له في طلبها باسطاً له كنفك مقبلاً عليه بوجهك مع ظهور سرورك بما سألك فسحة رأي وبسطة ذرع وطيب نفس وان كرهت قضاء حاجته وأحببت رده عن طلبته وثقل عليك اجابته اليها واسعافه بها امرت كاتبك فصفحه عنها ومنعه من مواجهتك بها فخفت عليك في ذلك المؤنة وحسن لك الذكر ولم ينتشر عنك تجهم الرد ويذلك سوء القالة في المنع وحمل على كاتبك في ذلك لائمة انت منها بريء الساحة .

« وكذلك فليكن رأيك وامرك فيمن طرأ عليك من الوفود ، واتاك من الرسل ، فلا يصلن اليك احد منهم الا بعد وصول علمه اليك ، وعلم ما قدم له عليك ، وجهة ما هو مكلمك به ، وقدر ما هو سائلك اياه ، اذا وصل اليك فاصدرت رأيك في حوائجه ، وأجلت فكرك في امره ، واخترت معتزماً على ارادتك في جوابه ، وانفذت مصدور رويتك في مرجوع مسألته ، قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله اليك ، فرفعت عنك مؤونة البديهة ، وارخيت عن نفسك خناق الروية ، واقدمت على رد جوابه بعد النظر ، واجالة الفكر فيه ، فان دخل اليك احد منهم فكلمك بخلاف ما انهى الى كاتبك ، وطوى عنه حاجته قبلك ، دفعته عنك دفعاً جميلاً ، ومنعته جوابك منعاً وديعاً ، ثم امرت حاجبك باظهار الجفوة له ، والغلظة عليه ، ومنعه من الوصول اليك ، فان ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الاسباب ، صارفاً عنك مؤونتها ومسهلاً عليك مستصعبها) .

هذه هي الخطة التي اختطها عبد الحميد لولي عهد المسلمين ، يريد بها ان يرفع مقامه بين الناس ، على اختلاف مطالبهم ، وان يظهره بمظهر الكرامة بعيداً عن تجبيه قاصديه والتجهم لهم ، وهو ضرب من حسن الادارة والسياسة ما نخال رجال الدول الراقية اليوم يعملون بغير هذه الطريقة حتى لا يسقطوا من الانظار ويتركوا للراجعين فسحة من الامل ، ولا يقطعوا معهم قطعاً بتاً ، وان يستهدف صغار العمال للنقد وافظع من النقد ، والرئيس

من ذلك بمعزل ، على حين هو الكل في الكل ، والصغير عن رأيه صدر ، ولارادته نفذ ولقانونه طبق . وماذا يضير هذا لوحمل الناس عليه بالطعن وقد يفادي بالمئات من العمال لقيام الدولة وحفظ البيضة واستبقاء الكرامة والحظوة في الرفع من مكانة الرئيس الاول فان بسقوطه سقوط الدولة وسقوط بعض عماله لا شأن له ولا بال . وحقيقة فان من المسائل ما يوفق لكشفه صاحب الشرطة مثلاً اكثر مما يوفق العظيم في الدولة لانه متمحض لذلك ومقام ولاية العهد يصغر في نفوس الامة اذا عمل في جزئيات الامور عملاً قد يجيده العامل الصغير و يوفق فيه و يوفر على صاحبه وقته و يرفع في العيون شخصيته .

جوّد عبدالحميد الكلام على هذا فأبان عن بعد نظر في سياسة الملك وسياسة الرعية ثم انشأ ينهج للمكتوب اليه طريقاً مهيعاً في سلوكه مع جلسائه وبطانته واهل مشورته واعوانه وفي احوال نفسه . تالله لقد لقنه هنا ادباً ، وحدد له عادات ليست اليوم قواعد الحياة العامة في الممالك المتمدنة ارقى منها . وفي هذا دليل ناهض على ان العقل البشري على كثرة ارتقائه جيلاً فجيلاً ان يبرح في دائرة نرى فيها ما كان يستحسن قبل الف سنة يستحسن اليوم وتلك القواعد التي يتمسكون بها هي القواعد التي سنها أجدادنا لانفسهم منذ ثلاثة عشر قرناً . قال عبد الحميد :

« احذر تضييع رأيك ، واهمالك أدبك ، في مسالك الرضا والغضب ، واعتوارهما إياك ، فلا يزدهينّك إفراط عجب تستخفك روائعه ويستهويك منظره ولا يبدرن منك ذلك خطأ زنزق خفة لمكروه ان حل بك او حادث ان طرأ عليك .... وامنع اهل بطانتك وخاصة خدمك من استقحام اعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب اليك بالسعاية والاغراء من بعض ببعض او النميمة اليك بشيء من احوالهم المستترة عنك او التحميل لك على احد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة فان ذلك أبلغ بك سمواً الى منالة الشرف واعون لك على محمود الذكر وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

« واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق[1] وعن القطوب باظهار

(١) الاتساع .

الغضب وتحمله فان ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل وخروج من انتحال اسم الفضل وليكن ضحكك تبسماً او كشراً في احايين ذلك واوقاته وعند كل رائع مطرب وقطوبك اطرافاً في مواضع ذلك واحواله بلا عجلة الى السطوة ولا اسراع الى الطيرة ، دون ان يكتنفها روية الحلم ، وتملك عليها بادرة الجهل ·

« اذا كنت في مجلس ملئك ، حيث حضور العامة مجلسك ، فاياك والرمي بنظرك الى خاص من قوادك ، اوذي أثرة عندك من حشمك ، وليكن نظرك مقسوماً في الجميع واراعيك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن وحضور فهم مجتمع ، وقلة تضجر بالمحدث ، ثم لا يبرح وجهك الى بعض حرسك وقوادك متوجهاً بنظر ركين ، وتفقد محض وان وجه اليك احد منهم نظره محدقاً ، او رماك ببصره ملحاً ، فاخفض عنه اطراقاً جميلاً بائتداع وسكون ، واياك والتسرع في الاطراق ، والخفة في تصريف النظر ، والالحاح على من قصد اليك في مخاطبته اياك رامقاً بنظره ·

« واعلم ان تصفحك وجوه جلسائك ، وتفقدك مجانسة قوادك ، من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، وذكاء الفطنة ، وانتباه السنة فتفقد ذلك عارفاً بمن حضرك وغاب عنك ، عالماً بمواضعهم من مجلسك ، ثم أعدُ بهم عن ذلك سائلاً لهم عن اشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك ، وعاقتهم بالتخلف عنك ·

« ان كان احد من حشمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير ، وتعرف منه لين طاعة ، وتشرف منه على صحة رأي ، وتأمنه على مشورتك ، فإياك والاقبال عليه ، في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، ان تريه او احداً من اهل مجلسك ان بك حاجة اليه موحشة ، او ان ليس بك عنه غنىً في التدبير ، او انك لا تقضي دونه رأياً ، اشراكاً منك له في رويتك ، وادخالاً منك له في مشورتك ، واضطراراً منك الى رأيه في الامر يعروك ، فان ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك ، فانفها عن نفسك ، خائفاً لاعتلاقها ذكرك ، واحجبها عن رويتك قاطعاً اطماع اوليائك عن مثلها عندك ، او غلوهم عليها منك ، واعلم ان للمشورة موضع الخلوة وانفراد النظر ، ولكل امر غاية تحيط بحدوده ، وتجمع معالمه ، فابغها

محرزاً لها ، ورمها طالباً لنيلها ، واياك والقصور عن غايتهـا ، او العجز عن دركها ، او التفريط في طلبها ان شاء الله تعالى ·

« اياك والاغرامَ عن حديث ما اعجبك ، او امر ما ازدهاك بكثرة السؤال ، او القطع لحديث من أرادك بحديثه ، حتى تنقضه عليه بالخوض في غيره ، او المسألة عما ليس منه · فان ذلك عند العامة منسوب الى سوء الفهم ، وقصر الادب ، عن تناول محاسن الامور والمعرفة بمساويها ، ولكن انصت لمحدثك وارعه سمعك ، حتى يعلم ان قد فهمت حديثه ، واحطت معرفة بقوله ، فان اردت اجابته فعن معرفة بحاجته ، وبعد علم بطلبته ، والا كنت عندانقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والاغضاء ، فأجزى عنك الجواب ، وقطع عنك السن العتب ·

« اياك وان يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، او تضجر ممن حضرك ، وعليك بالتثبت عند سورة الغضب ، وحمية الأنف ، وملال الصبر في الامر تستعجل به ، والعمل تأمر بانفاذه ، فان ذلك سخف شائن ، وخفة مردية ، وجهالة بادية ، وعليك بثبوت المنطق ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام ، والترك لفضوله ، والاغرام بالزيادات في منطقك ، والترديد للفظك ، من نحو اسمع ، وافهم عني ويا هنـاه ، والا ترى ، او ما يلهج به من هذه الفضول المقصّرة باهل العقل ، الشائنة لذوي الحجا في المنطق ، المنسوبة اليهم بالعي ، المردية لهم بالذكر ، وخصال من معـايب الملوك ، والسوقة عنها غبية النظر ، الا من عرفهـا من اهل الأدب ، وقلما حامل لها مضطلع بها ، صابر على ثقلها آخذ لنفسه بجوامعها فانفها عن نفسك بالتحفظ منها واملاك عليها اعتيادك اياها معتنياً بهـا منهـا كثرة التنخم والتبصق والتنخع والتثؤباء والتمطي والجشاء وتحريك القدم وتنقيض الاصابع والعبث بالوجه واللحية اوالشارب اوالمخصرة او ذؤابة السيف او الايماض بالنظر او الاشارة بالطرف الى بعض خدمك بامر ان أردته او السرار في مجلسك او الاستعجال في طعمك او شربك وليكن طعمك متدعاً وشربك انفاساً وجرعك مصاً واياك والتسرع في الايمان فيما صغر او كبر من الامور والشتيمة بقول يا ابن الهناة او الغميزة لاحد من خاصتك بتسو يفهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك او دارك وفناؤك فان ذلك كله مما يقبح ذكره ويسوء موقع القول فيه

وتحمل عليك معايبه و ينالك شينه و ينتشر عليك سوء النبأ به فاعرف ذلك متوقياً له واحذره مجانباً لسوء عاقبته ·

« استكثر من فوائد الخير فانها تنشر المحمدة وتقيل العثرة واصبر على كظم الغيظ فانه يورث الراحة و يؤمن الساحة وتعهد العامة بمعرفة دخلهم وتبطن احوالهم واستثارة دفائنهم حتى تكون منها على رأي عين و يقين خبرة فتنعش عديمهم وتجبر كسيرهم وتقوّم اودهم وتعلم جاهلهم وتستصلح حاسدهم فان ذلك من فعلك بهم يورثك العزة و يقدمك في الفضل و يبقي لك لسان الصدق في العاقبة و يحرز لك ثواب الآخرة و يرد عليك عواطفهم المستنفرة منك وقلوبهم المنحية عنك ·

« قس بين منازل اهل الفضل في الدين والحجا والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة وبين منازل اهل النقص في طبقات الفضل واحواله والخمول عند مباداة النسب وانظر بصحبة ايهم تنال من مودته الجميل وتستجمع لك اقاويل العامة على التفضيل وتبلغ درجة الشرف في احوالك المتصرفة بك فاعتمد عليهم من خلالهم في امرك وآثرهم بمجالستك لهم مستحقاً منهم واياك وتضييعهم مفرطا واهمالهم مضيعا » ·

هنا انتهى الفصل الاول من هذه الرسالة المتناهية في الإبداع وقد لحنا فيها مايهذب النفس و يعرفها مصادر الامور ومواردها و يقفها على احوال الناس ومعالجة مسائلهم وقد ختمه بقوله : هذه جوامع خصال قد لخصها لك امير المؤمنين مفسراً وجمع لك شواذها مؤلفاً واهداها اليك مرشداً فقف عند اوامرها وتناه عن زواجرها وتثبت في مجامعها وخذ بوثائق عراها تسلم من معاطب الردى وتنل انفس الحظوظ ورغيب الشرف واعلى درجات الذكر والله يسأل لك امير المؤمنين حسن الارشاد وتتابع المزيد وبلوغ الامل وان يجعل عاقبة ذلك بك الى غبطة يسوغك اياها وعافية يحلك اكنافها ونعمة يلهمك شكرها فانه الموفق للخير والمعين على الارشاد وبه تمام الصالحات وهو مؤتي الحسنات وبيده الملك وهو على كل شيء قدير » ·

قرأنا في الجزء الاول من هذا الكتاب صورة من التربية التي يريد عبدالحميد الاكبر ان يلقنها ولي عهد المسلمين ، ومما يحاول ان ينزه عنه خلقه وعاده ، ومجالسه ومواقفه ، ويلقنه من السيرة الحسنة مع رعيته وذوي الحاجات والظلامات منها ، ومايجب ان يكون

عليه في ادارته وسياسته مع عماله ونصحائه واصحاب اخباره ، على صورة يظهر معهـا تام الادوات ، جميل المآتي والصفات ، عظيماً يضم في برديه ضروب الوقار وحسن السمت ، وجمال العلم والادب ·

اما الجزء الثاني من الكتاب فهو قانون الحرب يلخصه لقائدها ، فيعمل على نفاذه لتكتب له الغلبة على خصمه الخارج على دولته · وقد بدأ هذا القسم بالوقوف عند حدود الطاعة لله ، والعمل بمراشده ، واجتناب نواهيه ، ووصف الدواعي الى جهاد العدو الذي خرج على الجماعة فكان اضر على المسلمين من الترك و لمشركين واوصاه برعاية من يمر بهم الجيش من اهل الذمة واهل الملة لئلا ينال الرعية ما ينالها على الاغلاب من كل جيش مرابط ومشاغر ومهاجم ومدافع ومتراجع · فقال هذا :

فاذا افضيت نحو عدوك واعتزمت على لقائهم واخذت أهبة قتالهم فاجعل دعامتك التي تلجأ اليهـا وثقتك التي تأمل النجاة بها وركنك الذي ترتجي به منازل الظفر وتكتهف[1] به لمخالق الحذر تقوى الله عز وجل مستشعراً لهـا بمراقبته والاعتصام بطاعته متبعاً لامره مجتنباً لسخطه محتذياً سنته والتوقي لمعاصيه في تعطيل حدوده وتعدي شرائعه متوكلاً عليه فيما صمدت[2] له واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر وتلقاك من عز راغباً فيما اهاب[3] بك اميرالمؤمنين اليه من فضل الجهاد ورمى بك اليه محمود الصبر فيـه عند الله من قتال عدو المسلمين أكلبهم عليه واظهره عداوة لهم وافدحهم ثقلاً لعامتهم والخذة بربقهم[4] واعلاه عليهم بغياً واظهره فيهم فسقاً وفجوراً واشدّه على فيئهم الـذي اصاره الله لهم مؤنة وكلاً والله المستعان عليهم والمستنصر على جماعتهم عليه يتوكل اميرالمؤمنين واياه يستصرخ عليهم واليه يفوض امره وكفى بالله ولياً وناصراً ومغيثاً وهو القوي العزيز ·

ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرّتهم ورد مستعلي جورهم[5] واحكام

---

(١) اكتهف وتكهف لزم الكهف والكهف المغارة والوزر الملجأ · (٢) صمد للامر قصده معتمداً عليه · (٣) اهاب بصاحبه دعاه · (٤) الربقة حبل يوضع في العنق وجمعه ربق · (٥) في الصبح : ورد مشتمل جهلهم واحكام ضياع عملهم ·

خالهم ، وضم منتشر قواصيهم ، ولم شعث أطرافهم ، وتقييدهم عمن مروا به من اهل ذمتك ، وملتك ، بحسن السيرة ، وعفاف الطعمة ، ودعة الوقار ، وهدي الدعة ، وجمام المستجم ، محكماً ذلك منهم ، متفقداً لهم فيه تفقدك اياه من نفسك .

ثم اصمد لعدوك المتسمي بالاسلام ، الخارج عن جماعة اهله ، المنتحل ولاية الدين ، مستحلاً لدماء اوليائه ، طاعناً عليهم ، راغباً عن سنتهم ، مفارقاً لشرائعهم ، يبغيهم الغوائل ، وينصب لهم المكايد ، اضرم حقداً عليهم ، وارصد عداوة لهم ، من الترك وأم الشرك ، وطواغي الملل ، يدعو الى المعصية والفرقة ، والمروق من الدين الى الفتنة ، مخترعاً بهواه الى الأديان المنتحلة ، والبدع المتفرقة ، خساراً وتخسيراً ، وضلالاً وتضليلاً ، بغير هدى من الله ولا بيان ، ساء ما كسبت يداه ، وما الله بظلام للعبيد ، وبئسما سولت له نفسه الامارة بالسوء ، والله من ورائه بالمرصاد ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون .

وقد رأينا بما نقلنا من جمله انه عاد فأراده على الاعتصام بالمولى ، وادلى اليه بالوسائل الى استصلاح عدوه من دون اهراق دم فقال له : « اعلم ان الظفر ظفران احدهما أعم منفعة ، وابلغ في حسن الذكر قالة ، وأحوطه سلامة ، وأتمه عافية ، وأعوده عاقبة ، وأحسنه في الامور مورداً ، وأصحه في الرواية حزماً ، وأسلمه عند العامة مصدراً ، ما نيل ببسالة الجنود ، وحسن الحيلة ، ولطف المكيدة ، ويمن النقيبة [1] ، واستنزال طاعة ذوي الصدوف [2] ، بغير اخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب ، ومنازلة الفرسان في معترك الموت ، وان ساعدتك طلوق الظفر ، ونالتك مزية السعادة في الشرف ، ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب ، وعضاض السيوف ، وألم الجراح ، وقصاص الحروب وسجالها بمعاورة أبطالها ، على انك لا تدري لاي الفريقين يكون الظفر في البديهة ، ومن المغلوب في الدولة ، ولعلك ان تكون المطلوب بالتمحيص ، فحاول ابلغهما في سلامة جندك ورعيتك ، واشهرهما صيتاً في بدو تدبيرك ورأيك ، واجمعهما لإلفة وليك وعدوك ، واعونهما على صلاح رعيتك ، واهل ملتك ، واقواهما شكيمة في حزمك ،

(١) النقيبة النفس . (٢) الميل والانحياز .

وابعدهما من وصم عزمك ، واعلقهما بزمام النجاة في آخرتك ، واجزلها ثواباً عند ربك .

وابدأ بالاعذار[1] الى عدوك ، والدعاء لهم الى مراجعة الطاعة وامر الجماعة ، وعرى الأنفة ، آخذاً بالحجة عليهم ، متقدماً بالانذار لهم ، باسطاً امانك لمن لجأ اليه منهم ، داعياً لهم اليه بألين لفظك والطف حيلتك ، متعطفاً برأفتك عليهم ، مترفقاً بهم في دعائك ، مشفقاً عليهم من غلبة الغواية لهم ، واحاطة الهلكة بهم ، منفذاً رسلك اليهم بعد الانذار ، تمدهم كل رغبة يهش اليها طمعهم في موافقة الحق ، و بسط كل امان سألوه لانفسهم ومن معهم ومن تبعهم ، موطناً نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك ، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك ، قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة ، ومراجعة مسيئهم الى الطاعة ، مرصداً للمنحاز الى فئة المسلمين وجماعتهم ، اجابة الى ما دعوته اليه ، وبصرته اياه من حقك وطاعتك ، بفضل المنزلة واكرام المثوى ، وتشريف الجاه ، وليظهر من اثرك عليه ، واحسانك اليه ، ما يرغب في مثله الصادف عنك ، المصر على خلافك ومعصيتك ، ويدعو الى اعتلاق حبل النجاة ، وما هو املك به في الاعتصام عاجلاً وانجى له من العقاب آجلاً واحوطه على دينه ومهجته بدءٍ وعاقبة فان ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم ويعتضد به في تقديمه الحجة اليهم معذراً او منذراً ان شاء الله .

وهنا اورد له الصورة التي يجب ان يتخذها لارسال عيونه وجواسيسه لمعرفة حال العدو وادراك نفسيته وما يرغب فيه « مستشيراً لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم التجربة ونجذتهم الحروب » وان الواجب ان يعظم امر عدوه لا كثر مما بلغه اخذاً بالحزم لئلا يكون غير مهين الجند ولا مفرطاً في الرأي ولا متلهفاً على اضاعة تدبير ووضع له قاعدة ان يحذر جواسيسه انفسهم بما يأتونه به من اخبار عدوه وان لا يعاقبهم اذا اتهمهم في خبر حملوه ملتمساً لهم الاعذار ولعلهم أُوتوا من تدبير العدو ومكيدته . وقال :

« البسهم[2] جميعاً على الانتصاح وارجح لهم المطامع فانك لم تستعبدهم بمثله

---

(١) اعذر بالغ في العذر اي في كونه معذوراً على ما اتاه . (٢) خالطهم .

وعدهم جزالة الثواب في غير مااستدامة منك الى امر عدوك » . « واعلم شأن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك وربما كانوا لك وعليك فنصحوا لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوا عدوك وكثير مما يصدقونك ويصدقونه فلا يبدرن منك فرطة وعقوبة الى احد منهم ولا تعجل بسوء الظن الى من اتهمته على ذلك وابسط من آمالهم فيك من غير ان تُري احداً منهم انك اخذت من قوله اخذ العامل به والمتبع له او عملت على رأيه عمل الصادر عنه او رددته عليه رد المكذب له والمتهم له المستخف بما اتاك منه فتفسد بذلك نصيحته وتستدعي غشه وتجتر عداوته واحذر ان يُعرف جواسيسك في عسكرك او يشار اليهم بالاصابع وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وامين سرك ويكون هو الموجه لهم والمدخل عليك من اردت مشافهته منهم واعلم ان لعدوك في عسكرك عيوناً راصدة وجواسيس كامنة وان رأيه في مكيدتك مثل ما تكايده به وسيحتال لك كاحتيالك له ويعدّ لك كإعدادك فيما تزاوله منه فاحذر ان يشهر رجل من جواسيسك في عسكرك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه فيعد له المراصد ويحتال له بالمكائد فان ظفر به فأظهر عقوبته كسر ذلك ثقات عيونك وخذلهم عن تطلب الاخبار من معادنها واستقصائها من عيونها واستعذاب اجتنائها من ينابيعها حتى يصيروا الى اخذها مما عرض من غير الثقة ولا المعاينة لقطاً لها بالاخبار الكاذبة والأحاديث المرجفة واحذر ان يعرف بعض عيونك بعضاً فانك لا تأمن تواطئهم عليك ومما لأتهم عدوك واجتماعهم على غشك وتطابقهم على كذبك واصفاقهم[1] على خيانتك وان يورط بعضهم بعضاً عند عدوك فاحكم امرهم فانهم رأس مكيدتك وقوام تدبيرك وعليهم مدار حربك وهو اول ظفرك » .

وذكر له بعد هذا صفة من يوليه شرطته ، وان يكون اوثق قواده عنده وآمنهم نصيحة ، واقدمهم بصيرة في طاعته ، واصدقهم عفافاً ، وان يبسط من امله مظهراً عنه الرضا ، حامداً منه الابتلاء ، وبين له مهمته من الجيش وسلطته على الناس . وقال له ان يولي القضاء في عسكره رجلاً من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم

(١) اجتماعهم .

والوقار والعصمة والورع ممن حنكته السن ، وابدته التجربة ، ويكون ممن لا يداهن في القضاء ويعدل ، وان يجري عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه ، ليتفرغ لما حمله ، ويعان على ما ولي ، واشار له ان ينتخب لطلائعه ذوي نجدة وبأس وخبرة ممن صلوا بالحروب ، وشربوا مرار كؤوسها ، وان ينتقيهم على عينه ، ويعرض كراعهم [1] بنفسه ، ويبين له ما يصلح من الخيل والسلاح ووصف ذلك ابدع وصف . وحذره ان يكل مباشرة عرضهم وانتخابهم الى احد من اعوانه وكتابه ، لئلا يضيع مواضع الحزم ويقف دون عزم الروية ، لانهم حصون المسلمين وعيونهم وهم اول مكيدته ، وعروة امره ، وزمام حربه ، وان ينتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت ، مشهور الاسم ، ظاهر الفضل ، له في العدو وقعات وصولات ، وان يجري عليهم وعليه ارزاقاً تسعهم وتمد من اطماعهم سوى ارزاقهم في العامة وبعد هذا قال له ان يولي درّاجة عسكره واخراج اهله الى مصافهم ومراكزهم رجلاً من اهل بيوتات الشرف محمود الخبرة معروفاً بالنجدة ذا سن وتجربة وان يضم اليه عدة نفر من ثقات جنده وذوي اسنانهم يكونون شرطة معه ثم يتقدم اليه في اخراج المصاف واقامة الاحراس واذكاء العيون وذكر له عمل هذا الرجل في الاخذ بالنافع لقيام امر الجيش ورقابته من العدو .

وذكر له ان يفوض الى امراء اجناده وقواد خيله امور اصحابهم رياضةً منه لهم على السمع والطاعة لامرائهم وحذره ان يعتل احد من قواده عليه بما يحول بينه وبين تأديب جنده لان ذلك مفسدة للجند وحذره استخفاف الجند بقوادهم لان ذلك يؤدي الى استخفافهم بامره وان يوعز الى قواده ان لا يقدموا على عقوبة احد الا عقوبة تأديب اما عقوبة القتل او اقامة حد في قطع او افراط في ضرب فلا يلي ذلك الا هو او صاحب شرطته بامره وعن رأيه واذنه .

وبعد ذلك بسط له لقاء العدو اذا شام طلائعه كيف يكتّب خيوله ويعبي جنده ويسير في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة شاهرين الاسلحة ناشرين البنود والاعلام عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم معرفاً كل قائد اصحابه مواقفهم من الميمنة

---

(١) كراعهم خيلهم .

والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، ليكون كأنه عسكر واحد في اجتماعه على العدو ، فان ضلت دابة من موضعها عرف اهل العسكر من اي المراكز هي ومن صاحبها ، وفي اي المحل حلوله منها فردت اليه . واراده على ان يجعل على ساقته أوثق اهل عسكره صرامة ونفاذاً ، ورضاً في العامة ، وانصافاً من نفسه للرعية ، وان يجعل خلف ساقته رجلاً من وجوه قواده جليداً ماضياً عفيفاً صارماً شهم الرأي شديد الحذر غير مداهن في عقوبة ، في خمسين فارساً من خيله ، يحشر اليه جنده ويلحق به من يتخلف عنه ، وامره ان يعد العقوبة الموجعة و يستصفي الأموال و يهدم عقار كل من آوى احداً من الجند او ستر موضعه او أخفى محله ثم قال :

ليكن رحيلك إباناً واحداً ، ووقتاً معلوماً ، لتخف المؤنة بذلك على جندك ، ويعلموا أوان رحيلهم فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ، ويطمئن ذوو الرأي الى إبان الرحيل ، ومتى يكون رحيلك مختلفاً ، تعظم المؤنة عليك وعلى جندك ، ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف ، وينزلون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .

إياك ان تظهر استقلالاً ، او تنادي برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب تعبيتك بالوقوف باصحابه على معسكرك آخذاً بجنبي فوهته باسلحتهم عدة لامر ان حضر ، او مفاجأة من طليعة للعدو ان رأت منكم نهزة ، او لمحت عندكم غرة ، ثم مر الناس بالرحيل ، وخيلك واقفة ، وأهبتك معدة ، وجنتك واقية ، حتى اذا استقللتم من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سرتم على تعبيتكم بسكون ريح ، وهدوء حملة ، وحسن دعة ، فاذا انتهيت الى منهل اردت نزوله ، او هممت بالمعسكر به ، فاياك ونزوله الا بعد العلم باهله ، والمعرفة بمرافقه ، ومر صاحب طليعتك ان يعرف لك أحواله ، و يستثير لك علم دفينه ، و يستبطن علم اموره ، ثم ينهيها اليك على ما صارت اليه ، لتعلم كيف احتماله لعسكرك ، و كيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك ان أردت مقاماً به ، او مطاولة عدوك ، او مكايدته فيه ، قوة تحملك ومدد يأتيه ، فانك ان لم تفعل ذلك ، لم تأمن من ان تهجم على منزل يعجزك و يزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع مواده ان أردت بعدوك مكيدة ، او احتجت من امورهم الى

مطاولة ، فان ارتحلت منه كنت غرضاً لعدوك ، ولم تجد الى المحاربة والاخطار سبيلاً ، وان اقمت به اقمت على مشقة وحصر ، وفي ازل[١] وضيق ، فاعرف ذلك وتقدم فيه ، فان أردت نزولاً امرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوقفت خيله متنحية من معسكرك ، عدةً لامر ان غالك ، ومفزعاً لبديهة ان راعتك ، فقد أمنت بحمد الله وقوته فجأة عدوك ، وعرفت موقعها من حرزك ، حتى يأخذ الناس منازلهم ، وتوضع الاثقال مواضعها ، و يأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودباباً محيطين بعسكرك ، وعدة ان احتجت اليها ، ولتكن دبابات جندك اهل جلد وقوة ، قائداً اواثنين او ثلاثة باصحابهم ، في كل ليلة ويوم نوباً بينهم ، فاذا غربت الشمس ووجب[٢] نورها أخرج اليهم صاحب تعبيتك أبدالهم ، عسساً بالليل في اقرب من مواضع دبابي النهار يتعاور ذلك قوادك جميعاً بلا محاباة لاحد فيه ولا إدهان » .

وعلى هذا النحو وضع لولي عهد المسلمين مخطط الحركات الحربية ثم قال له ان يكون منزله في خندق او حصن ليأمن فيه بيات عدوه ، وان يقطع لكل قائد ذرعاً معلوماً من الارض بقدر اصحابه ، فيحفروه عليهم خندقاً يطيفونه بعد ذلك بخنادق الحسك اي الأسلاك الشائكة . واذا طرقهم طارق او فاجأهم عدو ان لا يتكلم احد رافعاً صوته بالتكبير ، وليشرعوا رماحهم ناشبين بها في وجوههم ، و يرشقونهم بالنبل مكتنفين بالترسيهم ، لازمين لمراكزهم ، وان يكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون ، ليعرف مواضع عدوه من معسكره ، وان لا يشهروا سيفاً يجالدون به ، بل يكون قتالهم بالرماح والنشاب « قد ألبدوا بالأترسة ، واستجنوا بالبيض ، والقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب الحشو » وأراده على ان لا يخمد نار رواقه ليسكن نافر قلوب عسكره ، وان عدوه اذا نكل عن الاصابة في جنده فعليه ان يتبعه جريدة خيل عليها الثقات من فرسانه . وتقدم اليه فوصف الحالة التي يجب على هؤلاء الثقات ان يكونوا عليها ، وهم يطاردون اعداءهم ، والصفات التي يجب على فرسانه ان يكونوا عليها ليغنوا غناءهم ، ووصف له صورة خيلهم وعددهم وسلاحهم وكيف يولي على كل مائة رجل منهم رجلاً من اهل

(١) الازل ضيق في العيش . (٢) وجبت الشمس غابت .

خاصته وثقاته ونصحائه « له صيت في الرياسة وقدم في السابقة ، واولية في المتابعة ، ويتعهدهم ودوابهم وسلاحهم ليكونوا كرجل واحد في التشمير وسرعة الاجابة عند الطلب » .

وقال له : ان يوكل بخزائنه ودواوينه رجلاً ناصحاً اميناً و يجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزائنه وحولها ، ويكون عامة الجند والجيش متنحين عنها لئلا تحدث فزعة فينتهب الجند انفسهم الخزانة .

وبعد ان نحا هذا المنحى ختم هذه الرسالة العذراء بان يعمد الى الحيل اولاً لا الى القتال وان يدس الى عدوه ، ويكاتب رؤساءهم وقادتهم ، ويعدهم ويمنيهم ، و يقطع أعناقهم بالمطامع . وقال له : ولا عليك ان تطرح الى بعضهم كتباً كأنها جواب كتب لهم اليك ، وتكتب على السنتهم كتباً اليك تدفعها اليهم ، وتحمل بها صاحبهم عليهم ، وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة ، فلعل مكيدتك في ذلك ان يكون فيها افتراق كلمتهم . وأتم الرسالة بما يجب عليه وعلى جيشه من ذكر الله عند المصاولة وان لا يظهر الجند تكبيراً الا في الكرات والحملات ، اما وهم وقوف فان ذلك من الفشل والجبن ، وان يكون في معسكره المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة يحضون الناس على القتال ، و يصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، و يذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم اهلها وسكانها . و كتب هذا الكتاب سنة تسع وعشرين ومائة قبل زوال ملك بني أمية من الشرق بثلاث سنين .

عرفنا كما رأيتم من هذه الرسالة اموراً كثيرة من شؤون تلك الايام ، ونمط حروبها ، والاخلاق الغالبة على اهلها ، ما لا نتعرف بعضه بالرجوع الى الكتب المطولة والاحاديث المنتشرة ، ودل بها عبد الحميد الاكبر انه رجل الدولة الاموية ممن قد ينبغ مثلهم اواخر الدول فيكونون لها سراجاً وهاجاً ، وتنطفأ شعلتهم بانطفاء شعلتها .

وعرفنا بهذا القليل من الصفحات التي ابقت عليها العصور من كلام امام المنشئين نفسيته وعقله بما لا تنهض بتصوير بعضه التراجم المطولة التي يكتبها اصحابها فيمن لم يعرفوهم ولم يعاشروهم ، فيترجمون لهم كما يترجمون لغيرهم ، وبعض التراجم اذا ازلت منها جملاً معينة تليق ان تلبس على جسم اكثر الناس وروحهم . وترجمة المرء من كلامه افعل اثراً واصدق قيلاً .

رسالته الى الكتاب ومن اشهر ما خلفته العصور من رسائل عبد الحميد بن يحيى رسالته الى الكتاب نقلها عن اقدم مصدر لها وهو كتاب الجهشياري وقد نقلها ابن خلدون في مقدمته الا انه لم تصل اليه برمتها . قال صاحب تاريخ الوزراء وجدت بخط ميمون بن هرون لعبد الحميد كتاباً الى الكتاب اطال فيه الا انه اجاد فلم استجز اسقاط بعضه ، وكتبته جميعه على طوله لان الكاتب لا يستغني عن مثله وهو :

اما بعد حفظكم الله يا اهل هذه الصناعة وحاطكم ووفقكم وارشدكم ، فان الله عز وجل جعل الناس من بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين سوقاً ، وصرّفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم ، فجعلكم معشر الكتاب في اشرفها صناعة : اهل الادب والمروءة والحلم والروية ، وذوي الاخطار والهمم ، وسعة الذرع في الافضال والصلة ، بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك امورهم وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، ويجتمع فيئهم وتعمر بلادهم ، يحتاج اليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السنيّ والدني من ولايته ، لا يستغني عنكم منهم احد ، ولا يوجد كاف الا منكم ، فموقعكم منهم موقع اسماعهم التي بها يسمعون ، وابصارهم التي بها يبصرون ، والسنتهم التي بها ينطقون ، وايديهم التي بها يبطشون ، انتم اذا آلت الامور الى موئلها ، وصارت الى محاصلها ، ثقاتهم دون اهليهم واولادهم وقراباتهم ونصحائهم ، فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع سربال النعمة عليكم .

وليس احد من اهل الصناعات كلها احوج الى استخراج خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة . ايها الكتاب ان كنتم على ما سبق به الكتاب من صنعتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ، الى ان يكون حليماً في موضع الحلم ، فقيهاً في موضع الحكم ، مقداماً في موضع الاقدام ، ومحجماً في موضع الاحجام ، ليناً في موضع اللين ، شديداً في موضع الشدة ، مؤثراً للعفاف والعدل والانصاف ، كتوماً للاسرار ، وفياً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي ويذر ويضع الامور في مواضعها ، قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه فان لم يحكمه شدا منه شدواً يكتفي به ، يكاد يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته

مايرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر قبل صدره فيعد لكل امر عدته ويهيء لكل امر أهبته فتنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والادب وتفقهوا في الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ ، والفرائض ثم العربية فانهـا ثقاف السنتكم ، وأجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا الاشعار واعرفوا غريبهـا ومعانيهـا ، وايام العرب والعجم وأحاديثهـا وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمون به بهممكم ، ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فانه قوام كتاب الخراج منكم ، وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها ، ومساوي الامور ومحاقرها ، فانهـا مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم ، واربؤوا بانفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه اهل الجهالة والدناءة ، واياكم والكبر والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة بغير إحنة ، وتحابوا في الله عزوجل في صناعتكم ، وتواصلوا عليها فانها شيم اهل الفضل والنبل من سلفكم .

وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه ، وواسوه حتى ترجع اليه حاله ، وان اقعد الكبر احدكم عن مكسبه ، ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل رأيه وتجربتـه ، وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه ، أحدب وأحوط منه على اخيه وولده فان عرضت في العمل محمدة فليضفها الى صاحبه ، وان عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملال عند تغير الحال ، فان العيب اليكم معشر الكتاب اسرع منه الى المرأة ، وهو لكم اشد منـه لها ، فقد علمتم ان الرجل منكم قد يصف الرجل اذا صحبه في بدء امره من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ونصيحتـه ، وكتمان سره وعفافه وتدبيره ، بما هو حري ان يحققه بفعاله في غير حين الحاجة الى ذلك منه ، فابذلوا وفقكم الله ذلك من انفسكم ، في حال الرخاء والشدة ، والحرمان والمواساة ، والاحسان والاساءة ، والغضب والرضا ، والسراء والضراء ، فنعمت السمة هذه لمن وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة ، فاذا ولّي الرجل منكم وصيّر اليه من امور خلق الله وعباده امر ، فليراقب الله تعالى ذكره ، وليؤثر طاعته فيه ، وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً ، فان الخلق عباد الله ، وأحبهم اليه أرفقهم بعباده ، ثم ليكن بالحق حاكماً ، وللأشراف مكرماً ومداريا ، وللفيء وفراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألفاً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ليناً ، وسبف

استجلاب خراجه واستقصاء حقوقه رفيقاً ·

واذا صحب احدكم الرجل فليستشف خلائقه كما يستشف الثوب ليشتريه لنفسه فاذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة واحسن مداراة ورفق فقد عرفتم ان سائس البهيمة اذا كان حاذقاً بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت رموحاً اتقاها من رجلها وان كانت جموحاً لم يهجها اذا ركبها واذا كانت شموساً توقاها من ناحية يدها وان خاف منها عضاضاً توقاها من ناحية رأسها وان كانت حروناً لم يلاحها وتتبع هواها في طريقها وان استمرت عطفها فيسلس لها قيادها · ومن هذا الوصف من سائس البهيمة ورفق سياسته دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وصحبهم ·

والكاتب بفضل رأيه وشرف صناعته ، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يجاوره ويناظره ، ويفهم عنه ويخاف سطوته ، اولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ، ولا تعرف خطأ ولا صواباً ، الا بقدر ما يصيرها اليه سائسها ، وصاحبها الراكب لها فأدقوا يرحمكم الله النظر واعملوا فيه الروية والفكر ، تأمنوا ممن صحبتموه باذن الله النبوة ، والاستثقال والجفوة ؛ ويصيروا منكم الى الموافقة وتصيروا منهم الى المواساة والشفقة ان شاء الله ·

ولا يجوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره — قدر صناعته فانكم مما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدم لا تحتملون في خدمتكم على التقصير وخزان وحفظة لا يحتمل منكم التضييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما عددت عليكم فنعم العون عونكم على صيانة دينكم وحفظ امانتكم وصلاح معاشكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان اهلها ولا سيما الكتاب والامور اشباه وبعضها دليل على بعض · فاستدلوا في مؤتنف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة وارجحها حجة واحمدها عاقبة واعلموا ان للتدبير آفة وضداً [1] وافية لا يجتمعان في احد ابداً وهو الوصف الشاغل لصاحبه على

(١) كذا وفي رواية « واعلموا ان للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل الخ ·

انفاذ عمله ورويته فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره قصد الكافي في منطقه وليقصد في كلامه وليوجز في ابتدائه وليأخذ بجامع حججه فان ذلك مصلحة لعقله ومحجة لذهنه ومدفعة للتشاغل من اكثاره وان لم يكن الاكثار عادة ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب او جواب عند الحاجة فلا بأس ولا يدعون الرجل منكم صنع الله تعالى ذكره له في امره وتأييده اياه بتوفيقه الى العجب المضر بدينه وعقله وأدبه فانه ان ظن منكم ظان او قال قائل ان ذلك الصنع لفضل حيلته واصالة رأيه وحسن تدبيره كان متعرضاً لان يكله الله الى نفسه فيصير منها الى غير كاف ولا يقل احد منكم انه آدب واعقل واحمل لعبء التدبير والعمل من اخيه في صناعته فان اعقل الرجلين عند ذي الالباب القائل ان صاحبه اعقل منه واحمقهما الذي يرى انه اعقل من صاحبه لعجب هذا بنفسه ونبذ ذاك العجب وراء ظهره اذ كان الآفة العظمى من آفات عقله ولكن قد يلزم الرجل ان يعرف فضل نعمة الله عليه من غير عجب برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكابر على اخيه وكفئه ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته .

وانا اقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل « من يلزم الصحة يلزمه العمل » وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وختمته به تولانا الله واياكم معشر الكتاب بما يتولى به من سبق علمه في سعادته وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله » .

وبهذا الكتاب ايضاً عرفنا منازع عبد الحميد وادبه . وانه يريد ان يجعل من الكتابة صناعة شريفة تفيد الناس وتفيد الآخذين انفسهم بادبها وان الكتابة تحتاج الى ادوات كثيرة ذكرها مفصلة ولا بد بعد الاضطلاع باعباء ما يلزم لها من العلوم ان يلم الكاتب بكل موضوع ولو الماماً خفيفاً ومن احلى ما في رسالته ان يسترشد الصغار منهم بالكبار الذين سبقوهم في هذه الصناعة ويتعهدوهم ويعملوا بمشورتهم فلا عجب بعد هذا ان كانت لعبد الحميد من كتابته مدرسة خاصة ما زال الناس يأخذون منها في العصور التي تلته وقلما حادوا عنها بحال لانها معقولة مقبولة تنفع صاحبها في كل زمن وقد صدرت عن عقل عظيم جداً تجذته التجارب وأيده العلم الغزير والادب النمير .

نعم ألبس عبد الحميد في الثلث الاول من القرن الثاني هذا الانشاء العربي حلة جديدة

فيها المتانة وفيها الرشاقة واكثر ما بدا في تضاعيفها الاطالة في غير ما املال من سجع وترصيع انشاء يسير مع الطبع ومع الطباع التي تواءم اهل الحضارة ممن يفصلون و يتوسعون و يعيدون و يبدون ومقاصدهم تحوم حول التأثير في اذهان السامعين والقارئين . وبلوغ الغاية من تأليف الدول وانتظام الجماعة ولم تكن هذه الطريقة في الكتابة فيما بلغنا مألوفة في عامة دور الأمويين لان هؤلاء عرب اقحاح وكتابهم على شاكلتهم يحاولون بالايجاز في مكتوباتهم ان يتركوا للقارئ شيئاً من المعاني يفسرها بما يريد ويمتعوه بشيء من الحرية ينطلق فيها على ما يرى فيه المصلحة فيكون لديه المختصرات والتفاصيل من المطولات تفهم بذاتها . ومن المحقق ان عبدالحميد اقتبس هذه الطريقة من الامم المجاورة لا سيما الفرس ممن لم تكن حضارتهم حضارة ابتدائية كالعرب بل فيها المطول المسهب والمتشعب المتعب ولقد احتاج العرب بعد توسعهم في الملك الى تقرير المسائل على جليتها لا يعتورها اللبس ولا الإشكال ومن مواجب الحضارة الاسهاب ومن دواعي البداوة الاقتضاب . فعبد الحميد اذاً تشبع بروح لدولة وروح حضارتها التي بلغت في ايامه أعلى قممها ورسم بيراعته صورة ما احاطت به واقتضاه الحال ولو حاول بعد ان بلغت الامة ما بلغته من درجات التقدم في كل شأن من شؤون المجتمع ان يعود بالكتابة الى ايجازها القديم لما أفاد جديداً ، ولما رجع ذاك الصدى في سلطان دولته ، ولما وصف محيطه حق وصفه . ومن الصعب ان يتعدى المرء حدود البيئة ، ولا عليه فيما اتاه مادامت حال الدولة تتطلب القاء الخطا الى الامام ، وان تجدد اوضاعها على ما اقتضته المصلحة ، وطبيعة الملك والحضارة ، على ان لا يهدم في عمله اصلاً من الاصول القديمة . وفي هذا كان جماع المكانة التي بلغها عبد الحميد بانشائه فهو مخترع طريقة ، وكاتب وصاف على الحقيقة ، استجمع كل شروط البلاغة فعد امير المنشئين غير مدافع ، واستطاب الناس الى يومنا هذا أسلوبه المعجب المطرب ، واين من يشاكله فيه ، او تسمو قريحته الى مستوى ذاك النابغة في فنون الانشاء ، الداهية في حسن التصرف على ما يشاء .

محمد كرد علي

ابو عمر الزاهد (١)

غلام ثعلب الحُفَظة اللغوي المحدث

« وكتاب المداخل له »

نبغ للمسلمين في منتصف القرن الثالث من الهجرة علمان من كبار الاعلام ورحلتان عليهما المعول عند الاختلاف والمفزع في الخلاف . فأخذ طلاب العلوم يهرعون اليهما من كل صُقع وينسلون من كل حدب . وهما حاملا لواء العربية ببغداد ومنتدى أهلها . وعليهما انتهت رياسة العربية واليهما كان مرجع علماء المصرين (البصرة والكوفة) في تحقيق المسائل وتقييد الروايات كما قال :

أيا طالب العلم لا تجهلن ... وعُذ بالمبرّد أو ثعلب

تجد عند هذين علم الورى ... فلا تك كالجمل الاجرب

فخرج لهم من جهابذة التلامذة من ملأ وا الآفاق وبثوا فيها من كل علم ما رق وراق . وكان القرن الثالث للاسلام هو الذهبي من جهة استقرار الخلافة وتوطد الامامة في قرارتها في انحاء المعمور الشاسعة ثم اخذ ظلها الوارف ينقاص عن الاطراف و ينضوي الى ما استطف من مراكز الخلافة غير ان بزور العلم التي نثروها واشجار الحضارة العربية التي غرسوها لم تكن لتذوى او تذبل بعد ما سقوها من ينابيع عناياتهم الجارية وفيوضها الهامية المتوالية فنضرت وزهرت بما لم يخطر في الحسبان والظنون واثمرت واينعت على هنات هناك وشجون .

فممن تخرّج على المبرّد الزجّاج وابن السراج وابو علي الطوماري وابو بكر ابن ابي الأزهر وابن درستويه وأبو علي الصفار وأبو جعفر الصفار .

وممن اخذ عن ثعلب ابن الانباري وابو عمر الزاهد غلامه وابو موسى الحامض كبير أصحابه وابراهيم الحربي وأبو عبد الله اليزيدي وابن مقسم .

وممن أخذ عنهما أو خلط بين المذهبين ابو حسن الاخفش ثالث الأخافش واصغرهم

---

(١) المجمع : راجع الجزء الثامن من هذا المجلد ص ٤٤٩ .

ونفطويه وابن كيسان والصولي وابن المعتز ·

ثم برع لهؤلاء من التلامذة من فاقوا عليهم وتصدروا للرئاسة وأنافوا وبرّزوا وطار لهم دويٌّ في اكناف البسيطة كأبي علي الفارسي والسيرافيّ والزجاجي وابي الطيب اللغوي وابن خالويه والرماني وابن فارس والازهري الى غيرهم ·

ولكن مما لا يستهان به في مثل هذا المقام ان اباعمر الزاهد مع شهرته لم يطبع الى الآن شيءٌ من تآليفه الخطيرة التي هي مادة اللغة وينبوعها الصافي ولا عُرف بالبقاء منها غير فائت الفصيح عند بعض منتحلي العلم بدهلي وغير العشرات بخزانة برلين وغير هذا الكتاب الذي نحن بصدده مع ان ثلاثة منها غير هذه كانت توجد الى آخر المائة (١١) كما تراه في الثبت ·

وهذه النسخة فريدة فيما بلغه علمي وأحاطه نظري توجد بخزانة رامپور (الهند) في ١٣ صفحة وهي حديثة غير مضبوطة[1] ولا عارية عن الأغلاط بخط وسط ولم يثبت عليها تاريخ نسخها غير اني أُقدّر نظراً الى نوع خطها وورقها ان تكون كتبت في آخر المائة الثانية عشرة للهجرة نسختها في جلستي الصباح والمساء في بعض ايام شوال سنة ١٣٤٦ هـ (٣ ابريل سنة ١٩٢٨ م) ·

وثبت على النسخة ترجمته (بكتاب المداخلات) والمجمع عليه (المداخل) انظر فهرستي النديم وابن خير والوفيات وكشف الظنون وابا العلاء[2] وما اليه عن الغفران ومعجم الأدباء وغيرها · قال خليفة انه مختصر في اللغة وعليه (زيادات) وهو احد وثلاثون باباً سبعة منها زيادات عليه · قال العاجز الموجود في نسختنا وحاشاها من الخرم الحادث ثلاثون فقط · فلعل خليفة غلِطَ في الحساب او يكون اصل نسخة رامبور مقتضباً ·

وهذه الزيادات لم يذكرها احد ممن ترجم لأبي عمر · نعم ذكروا له عليه كتاباً آخر رسمه عند ابن النديم (حلى المداخل) وعند ياقوت (حل المداخل) وفي الوفيات (علل المداخل) · وليس في نسختنا علامة تدل على إفراز الزيادات عن الاصل ·

ولأبي الطيب عبد الواحد بن عليّ اللغويّ صاحب مراتب النحويين كتاب في مثل هذا المعنى سماه شجر الدُرّ ذكر ابو العلاء[2] انه سلك فيه مسلك ابي عمر في المداخل

(١) والذي يظهر لي ان اصلها كان مصحَّحاً · (٢) ص ٦٤ ·

ترى فصلاً منه بآخر هذه الطبعة . وهذا النوع يسمى المشجر وهو يسهل على الابناء حفظ اللغة و يناظره من علم الحديث المسلسل وقد سمي ابو الطاهر محمد بن يوسف التميمي [١] صاحب المقامات [٢] اللزومية المتوفى سنة ٥٣٨ كتابه المسلسل في اللغة الذي يوجد منه نسخة عتيقة مكتوبة سنة ٥٦٥ هـ في الخزانة المصرية قال ابن خير وهو في معنى المداخل .

وهذا اسناد الكتاب [٣] لابن خير الاشبيلي الى المؤلف قال : حدثني به الشيخ ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن معمر المزحجي رحمه الله قال حدثني به الوزير ابوبكر محمد بن هشام بن محمد المصحفي رحمه الله قال حدثني به ابي رحمه الله وابو الحسن علي بن محمد بن ابي الحسين وابو بكر محمد بن خشخاش وابوالحسن الزهري المفسر قراءة منه عليهم قالوا كلهم حدثنا به ابو سليمان [٤] عبد السلام بن السمح قراءة عليه قال قرأته باليمن على ابي عبد الله الحسين بن احمد بن بريهة العباسي قال قرأته على ابي عمر المطرز رحمه الله . قال ابوبكر المصحفي قال لي ابي رحمه الله كانت قراءتي له على ابي سليمان بالمدينة الزهراء سنة ٣٧٩ هـ قال ابو بكر المصحفي وابو سليمان هذا من اهل مورور هواري النسب رحل الى المشرق وأقام بها مدة طويلة وحج ولقي جماعة من اهل العلم وتفقه وكان حفظه لمذهب الشافعي أغلب عليه فعُرف وأحكم قراءة القرآن على القراء وروى كتباً كثيرة فلما انصرف من المشرق أنزله الحكم بالزهراء ووسّع عليه فصار زهراوياً مستوطناً بها الى ان مات وفيها قرأ الناس عليه واخذوا عنه وكان يروي عن المطرز نفسه كتبه ما خلا المداخل فانه لم يدرك قراءته عليه فقرأه باليمن عند انصرافه عن العراق على ابن بريهة من أئمة جامع بغداد . قال الوزير ابو بكر المصحفي كنت أقرأ المداخل على ابن خشخاش

(١) ترجم له ابن بشكوال رقم ١١٧٥ وابن الأبار في معجم اصحاب الصدفي رقم ١٢٤ وصاحب البغية ص١٢٠ . (٢) بقي منها نسخة بديرالاسكوريال ونسختان بجامع اللالهلي بالقسطنطينية وُصفتا بالزهراء ص٤٠٣ سنة ١٣٤٥ هـ وذُكرت المقامات في تكملة ابن الأبار رقم ١٧٢٢ وتحت ٣١٢ من طبعة الجزائر وفي المعجم المذكور تحت ٢٦٦ والمعاهد ٢ : ١٠٦ . (٣) ص٣٥٨ . (٤) ترجم له ابن الفرضي رقم٨٥٥ قال توفي سنة٣٨٧ هـ .

وصاعدٌ اللغوي حاضر اذ كان جارنا ببيت بلد (كذا) وكنت أنحط في ذلك الوقت عن القراءة عليه لصغر سني فكان جدي رحمه الله يشير على ابن خشخاش بان تكون قراءتي عليه وقت حضور صاعد فربما يردّ عليّ فيما أقرأه و يسبقني الى قراءة بعضه وكان صاعد قرأ المداخل بمصر على الوزير ابي الفضل[1] جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى ابن الفرات المعروف (بابن) حنزابة عن ابي عمر محمد بن عبد الواحد المطرّز قراءةً عليه ببغداد وكان ابن حنزابة لا يفارق صاعداً يسامره .

وحدثني به ايضاً اجازةً الشيخ الوزير ابو الوليد احمد بن عبدالله بن طريف رحمه الله قال اخبرني به .... ابو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني قراءةً عليه عن ابي بكر فضل .... بن محمد بن فضل الكاتب عن ابي سليمان عبد السلام بن السمح الزهراوي الشافعي عن ابي عبد الله الحسن[2] بن احمد بن بريهة لقيه باليمن عن ابي عمر (الزاهد) رحمه الله .

[....] وحدثني به ايضاً غير واحد من شيوخي رحمهم الله منهم ابو الحسن علي ابن عبد الله بن موهب وابو عبد الله محمد بن سليمان النفزي رحمهم الله عن الشيخ ابي العباس احمد بن عمر بن أنس العذري ثم الدلائي قال حدثني به ابو بكر محمد بن سعيد بن سختويه الاسفرائني قال حدثنا ابو اسحق ابراهيم بن بُندار البارع الضرير باسفرائن سنة ٣٧١ ﻫ قال حدثنا ابو عمر محمد بن عبد الواحد المطرّز الزاهد المعروف بغلام ثعلب مؤلفه رحمه الله اﻫ .

قال العاجز وابو عبد الله العبامي هو راوي نسختنا عن ابي عمر جاء ذكره في الباب الثامن عشر .

ترجمة ابي عمر ٢٦١ — ٣٤٥ ﻫ = عن فهرست ابن النديم ٧٦ و٧٧ ونزهة الألباء للكمال ابن الأنباري (٣٤٥ — ٣٥٤) ومعجم الادباء (٧ : ٢٦ — ٣٠) ووفيات

(١) وهو الذي اساء المتنبيّ اليه اذ قال :

بها نبطيّ من اهل السواد يُدرّس انساب اهل الفلا

(٢) وفيما تقدم الحسين ولم أقف على ترجمته .

الأعيان سنة ١٣١٠ هـ (١ : ٥٠٠ و ٥٠١) وتذكرة الحفاظ للذهبي (٣ : ٨٤—٨٦) وطبقات الشافعية لابن السبكي (٢ : ١٧١) ولسان الميزان لابن حجر (٥ : ٢٦٨) وبغية الوعاة (٦٩) وغيرها ٠

اسمه ونسبه وبلده = هو ابو عمر محمد بن عبد الواحد بن ابي هاشم الباوردي المطرز الزاهد غلام ثعلب ٠ لم يزد احد من مترجميه شيئاً على هذا وهو بغدادي المنشأ قال النديم وكان ينزل في سكة ابي العنبر وجاء عنده بعد أسطر (منزله ابي العنبر) ولم يذكرهما ياقوت في معجمه ٠ و باوَرْدُ الذي نُسب اليه هو بليدة خراسان أبيوردُ التي منها ابو المظفر الأبيوردي الشاعر وكانت صناعة ابي عمر تطريز الثياب فسمي من اجل ذلك المطرّز وابو عمرو بالواو والمطرزي بياء النسبة على ما جاء في خزانة البغدادي تصحيفان ٠ ولم يذكره السمعاني في ترجمة المطرز من أنسابه قال ابن خلكان ولكن ذكره في ترجمة غلام ثعلب أقول ولكنني لم أجده في طبعة الانساب لا في غلام ثعلب ولا في الباوردي ايضاً ٠ واما تسميته بالزاهد فما أدري ما وجهه غير ان ابا بكر بن خير الإشبيلي روى بسنده الى ابي ذر الهروي أنه قال ابو عمر المطرز الزاهد زاهد في الدنيا والآخرة ولعله كما قال [1] ابو نصر المنازي وقد شكا اليه ابو العلاء حسد الناس وكذبهم عليه « على ماذا حسدوك فقد تركت لهم الدنيا والآخرة » فقال ابو العلاء والآخرة !!! وجعل يكررها اي انه نبز أبا عمر وآذاه بالطعن ٠

شيوخه وتلامذته = صحب ابا العباس احمد بن يحيى ثعلباً زماناً طويلاً واكثر من النقل عنه ولذلك سمي غلام ثعلب و يظهر من اليواقيت انه اخذ عن المبرّد ايضاً وقال النديم [2] في كتاب الألفاظ لكلثوم بن عمرو العتابي انه رواه ابو عمر الزاهد عن المبرّد قال وهذا طريف ٠ وسمع الحديث من موسى بن سهل الوشاء ومحمد بن يونس الكديمي واحمد بن عبيد الله النرسي وابراهيم بن الهيثم البلدي واحمد بن سعيد الجمال و بشر بن موسى الاسدي وجماعة غيرهم ٠ روى ابن [3] القارح عن شيخه ابي الطيب

(١) انظر ابو العلاء وما اليه ص ٢٢٣ . (٢) ص ١٢١ ٠

(٣) رسالته سنة ١٣٣١ هـ ص ٢١١ ٠

اللغوي قال : قرأت على ابي عمر الفصيح واصلاح المنطق حفظاً وقال لي ابو عمر كنت أعلق اللغة عن ثعلب على خزف واجلس على دجلة أحفظها وارمي بها . قال الذهبي ولا أعلمه رحل .

أخذ عنه ابو علي الحاتمي الأديب من علماء حضرة سيف الدولة وصاحب الرسالة الموضحة لكشف مساوئ المتنبي وأبوالقاسم ابن برهان (بفتح الباء) وابو علي القالي وابن خالويه وابواسحق[1] الطبري وهو غلام[2] ابي عمر الزاهد وابو عبيدالله المرزباني صاحب الموشح وابو الفضل ابن حنزابة المحدث وزير كافور وابو عبد الله الحسين[3] بن احمد بن بريهة العباسي راوي نسختنا من المداخل عن ابي عمر وابو سليمان عبد السلام بن السمح المووروري الشافعي راوي تآليف أبي عمر عنه ماخلا المداخل فأنه أخذه عن ابي عبدالله العباسي عن ابي عمر وهو الذي ادخلها الاندلس وابو الفتح عبيد الله بن احمد النحوي جخجخ صاحب ابن دريد وراوي جمهرته وابومحمد الصفار وابومحمد ابن سعد القُطربلي وابو محمد الحجازي (ولعله وهب) وابو الطيب اللغوي وآخرون وجعفر بن محمد بن جعفر الطيالسي صاحب المكاثرة عند المذاكرة وابو بكر احمد بن ابراهيم المقرئ الجلاء (؟) وابو الحسين بن بشران .

وروى عنه ابوالحسن محمد بن[4] رزقويه والحاكم وابن منده والقاضي ابو القاسم بن المنذر وابوالحسين بن بشران وعلي بن احمد الرزاز وابوعلي بن شاذان وهو آخر من حدث عنه ومحمد[5] بن احمد بن القاسم المحاملي .

قال الذهبي قرأت على ابي المعالي احمد بن اسحق المؤيدي اخبركم ظفر بن سالم ببغداد اخبرنا هبة الله بن احمد الشبلي سنة ٥٥٧ اخبرنا ابوالغنائم محمد بن علي بن الحسن سنة ٤٧٨ اخبرنا محمد بن احمد بن القاسم المحاملي سنة ٤٠٧ اخبرنا ابو عمر الزاهد اخبرنا

(١) لعله هو الذي سماه ابن خير كما مرّ ابا اسحق ابراهيم بن بندار البارع الضرير
(٢) نشوار المحاضرة ١٤٤ . (٣) من عند ابن خير وجاء عنده اخرى الحسن .
(٤) وفي بعض الكتب بتقديم الزاي وفي بعضها رزق . (٥) كذا عند الذهبي وعند ابن السبكي احمد بن عبد الله المحاملي .

موسى ابن سهل الوشاء اخبرنا اسحق الازرق اخبرنا سفيان عن عاصم ابن عبيدالله عن سالم عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لايصور عبد صورة الاقيل له يوم القيامة احي ما خلقت .

قال الخطيب سمعت غير واحد يحكي ان الاشراف والكتاب واهل الادب كانوا يحضرون عند ابي عمر الزاهد ليسمعوا منه كتب ثعلب وغيرها وكان قد جمع جزءاً في فضائل معاوية فكان لا يمكن احداً من السماع منه حتى يبتدئ بقراءة ذلك الجزء قال ابن حجر رأيته وفيه اشياء كثيرة موضوعة والآفة فيها عن غيره . ولكن النديم غالى لتشيعه في الطعن عليه فقال «كان نهاية في النصب والميل على علي عليه السلام وكان يقول انه شاعر مع عاميته فمن شعره :

اذا ما الرافض الشامي تمت معايبه تختم في يمينه
فأما ان اتاك بسمت وجه فان الرفض باد في جبينه

و يكفيه جهلاً هذا الشعر» . أقول : ان جمع فضائل معاوية ليس من النصب في شيء غير ان النديم قد صرح محضه عن زبده وابدى بما عنده والبيتين اظنهما منحولين لضعف بنيتها ولأن الرفض والتختم باليمين لم يكونا مخصوصين بالشام وهو الذي عانى المتاعب حتى بعد وفاته كما سيأتي على ايدي روافض الكرخ . وتراه في الباب الاول يسمي علياً بامير المؤمنين وفي الباب التاسع عشر بولي الله وحبيبه . و يأتيك بيت لأبي عمر يدل على انه وان لم يكن شاعراً الا انه لم يكن بلغ هذا المبلغ على ان هذه الشكاة كما قيل : (وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارُها)

فلأبي عمر أسوة بخيار علماء العربية المنبوزين بذلك قال ابو علي[1] التنوخي اكثر رواة العرب فيما بلغني عنهم إما خوارج وإما شعوبية كأبي عبيدة معمر بن المثنى وابي حاتم سهل السجستاني وفلان وفلان وعدّد جماعة ومنهم ابوخليفة الجُمحي و ياقوت الحموي . وقال ابن حجر بعد ان نقل بعض قول النديم قلت هذا أوضح الأدلة على ان النديم رافضي لان هذه طريقتهم يسمون اهل السنة عامة واهل الرفض خاصة وقال في ترجمة النديم انه

(١) الأدباء (٦ : ١٤٠) .

غير موثوق به ومصنفه المذكور ينادي على من صنفه بالاعتزال والزيغ نسأل الله السلامة ونقل عن تاريخ الاسلام للذهبي انه معتزلي شيعي ثم قال لما طالعت كتابه ظهر لي انه رافضي معتزلي فانه يسمي اهل السنة الحشوية ويسمي الأشاعرة المجبرة ويسمي كل من لم يكن شيعياً عامياً ثم ذكر جملة من افتراآته وافتياتاته ·

كرمه مع ضيق ذات يده = قالوا ان اشتغاله بالعلوم واكتسابها قد منعه عن اكتساب الرزق والتحيل له فلم يزل مضيَّقاً عليه يتجرّع غصص الحياة النكداء ويلتصق بالدقعاء على نجار كريم وطيب عنصر وخيم · حدّث عباس بن محمد الكلواذاني قال سمعت ابا عمر الزاهد يقول ترْك قضاء حقوق الإخوان مذلة وفي قضائها رفعة فاحمدوا الله تعالى على ذلك وسارعوا في قضاء حوائجهم ومسارّهم تُكافؤوا عليه · وقال تلميذه الحاتمي اعتللت فتأخرت عن مجلس ابي عمر الزاهد قال فسأل عني لما تراخت الايام فقيل له انه كان عليلاً فجاءني من الغد يعودني فاتفق اني كنت قد خرجت من داري الى الحمام فكتب بخطه على بابي باسفيداج :

وأعجب شيء سمعنا به عليل يعاد فلا يوجد

قال والبيت له · وقال ابو الحسن المرزباني انه كان ابن ماسي ينفذ الى ابي عمر الزاهد وقتاً بوقت كفايته فقطع ذلك عنه مدة لعذر ثم انفذ اليه جملة ما كان في راتبه وكتب اليه رقعة يعتذر اليه من تأخير ذلك فردّه وامر بعض من كان عنده من اصحابه ان يكتب على ظهر رقعته :

اكرمتنا فملكتنا وتركتنا فأرحتنا

وايم الله ان هذا لهو الغنى ولكن الذهبي قال انه وان كان الامر كما قال لكنه لم يحسن الرد اذ قد كان تملكه بالاحسان القديم فما تغير التملك واما التأخر فجبره المحسن بتكميله وباعتذاره قلت ولكنه انتهز فرصة فكاك الرق فقد احسن الى نفسه اذ لم يحسن الى غيره · قال الخطيب وابن ماسي لا شك انه ابراهيم بن ايوب والد ابي محمد ·

سعة حفظه وسيلان ذهنه بحيث جرّ له تهمة التزيّد والاختلاق وبعض فضائله =

عده ابو بكر [1] الزبيدي في الطبقة الخامسة من اللغويين الكوفيين . قالوا انه كان اكثر ما يملي تصانيفه يلقيها بلسانه من غير صحيفة وكان كما قال [2] علي ابن ابي علي عن ابيه ومن الرواة الذين لم ير قط احفظ منهم ابو عمر الزاهد املى من حفظه ثلاثين الف ورقة في اللغة فيما بلغني وكان لسعة حفظه يطعن عليه بعض اهل الادب ولا يوثقونه في علم اللغة حتى قال عبيد الله ابن ابي الفتح (او الازهر كما هو في لسان الميزان) لو طار طائر في الجو لقال ابو عمر الزاهد حدثنا ثعلب عن ابن الاعرابي و يذكر في معنى ذلك شيئاً . قال ابن خلكان وكان ينقل غريب اللغة وحوشيها واكثر ما نقل ابو محمد بن السيد البطليوسي في كتاب المثلث عنه وحكى عنه غرائب . وقال ابو الفتح عبيد الله بن احمد النحوي أنشدنا ابو العباس اليشكري في مجلس ابي عمر محمد بن عبد الواحد يمدحه :

ابو عمر يسمو من العلم مرتقى ... يَزِلُّ مساميه و يردي مطاوله
فلو أنني أقسمتُ ما كنت حانثاً ... بان لم ير الراؤون حبراً يعادله
هو الشخت جسماً والسمين فضيلةً ... فأعجبْ بمهزول سمانٍ فضائله
تضمن من دون الجناحين زاخراً ... تغيب على من لجّ فيه سواحله
اذا قلتُ شارفنا أواخر علمه ... تفجّر حتى قلت هذي أوائله

وقال النديم اسوء رأيه في معتقده سمعت جماعة من العلماء يضعّفون حكايته وانتسبوا به الى التزيد ولا غرو ان صاحبنا كان منبوزاً بذلك فهذا شيخ المعرة يقول في لزومه :

توخّ نقل ابي زيد وكتب ابي ... عمرو وخلّ كلاماً في ابي عمر

وها انا ذا أنقل لك ثلاث حكايات في ذلك ثم أجيب عنها . قالوا وكان يسأل عن الشيء الذي يقدّر السائل انه قد وضعه فيجيب عنه ثم يسأل عنه بعد سنة فيجيب بذلك الجواب و يروى :

---

(١) مختصر طبقاته المطبوع برومة ص ١٤٧ . (٢) في النزهة والأدباء ابو علي ابن ابي علي وفي الحفاظ علي بن علي وكله تصحيف وهو القاضي التنوخي الاصغر ابو القاسم علي بن القاضي التنوخي الاوسط ابي علي المحسّن (بكسر السين المشددة) ابن القاضي التنوخي الكبير الشاعر ابي القاسم علي . والأوسط هو صاحب النشوار والفرج بعد الشدة والمستجاد راجع تراجمهم وأخبارهم ابو العلاء وما اليه ص ١٣٠ — ١٣٤ .

(١) ان جماعةً من اهل بغداد اجتـازوا على قنطرة الصراة وتذاكروا كذبه فقال بعضهم انا أصحف له القنطرة وأسأله عنهـا فننظر ماذا يجيب . فلما صرنا بين يديه قال له أيها الشيخ ما الهرطنق عند العرب فقـال كذا وكذا وذكر شيئاً فتضاحك الجماعة وانصرفوا فلما كان بعد شهر أرسلوا اليه شخصاً آخر فسأله عن الهرطنق فقال أليس قد سئلتُ عن هذه المسألة منذ كذا وكذا ثم قال هو كذا وكذا كما أجاب اولاً قال القوم فما ندري من اي الامرين نعجب : أمن حفظه ان كان علماً ام من ذكائه أن كان كذباً فان كان علماً فهو اتساع عجيب وان كان كذباً فكيف تناول ذكاؤه المسألة وتذكر الوقت بعد ان مرّ عليه زمان فأجاب بذلك الجواب بعينه اه .

(٢) قال الخطيب وكان معز الدولة قد قلَّد شرطة بغداد غلاماً تركياً مملوكاً يعرف بخُواجا فبلغ ابا عمر الزاهد وكان يملي كتاب الياقوتة في اللغة فقال للجماعة في مجلس الإملاء اكتبوا ياقوتة خواجا الخُواج في اصل اللغة الجوع ثم فرّع على هذا باباً باباً وأملاه عليهم فاستعظم الناس كذبه وتتبعوه اه .

(٣) حكى رئيس الرؤساء ابو القاسم علي بن الحسن عمن حدثه ان اباعمر كان مؤدب ولد القاضي ابي عمر محمد بن يوسف فأملى على الغلام نحواً من ثلاثين مسألة في اللغة وذكر غريبها وختمها ببيتين من الشعر وحضر ابو بكر بن دريد وابوبكر بن الأنباري وابوبكر ابن مقسّم العطار المقرئ عند القاضي فعرض عليهم تلك المسائل فما عرفوا منهـا شيئاً وانكروا الشعر فقال لهم القاضي ماتقولون فيها فقال ابن الأنبـاري انا مشغول بتصنيف مشكل القرآن ولست أقول شيئاً وقال ابن مقسّم مثل ذلك واعتذر باشتغاله بالقراآت (وفي بعض الكتب بالقرآن) وقال ابن دريد هذه المسائل من موضوعات ابي عمر ولا اصل لشيء منها في اللغة وانصرفوا . فبلغ ذلك اباعمر فاجتمع بالقاضي وسأله إحضار دواوين جماعة من قدماء الشعراء عيّنهم ففتح القاضي خزانته وأخرج له تلك الدواوين فلم يزل ابو عمر يعمد الى كل مسألة منها ويخرج لها شاهداً من تلك الدواوين ويعرضه على القاضي حتى استوفى جميع المسائل ثم قال وهذان البيتان أنشدهما ثعلب بحضرة القاضي وكتبهما القاضي بخطه على ظهر الكتاب الفلاني فأحضر القاضي الكتاب فوجد البيتين

على ظهره كما ذكر ابو عمر وانتهت القصة الى ابن دريد فلم يذكر ابا عمر بلفظة الى ان مات اه ٠

فأنت ترى انه لم يأخذ احد على ابي عمر كلمة لم يعرف لها مستنداً من كلام العرب ٠ ولئن كان كذب ابي عمر يروج على مثل هؤلاء الجهابذة فما اكبره اذاً وما اضعف منزلتهم ٠ وقد قالوا ان من حفظ حجة على من لم يحفظ وان زيادة الثقة مقبولة فلم يبق الا امر العجب وحيرة الناس في ذكائه ٠ فاما النديم فقد عرفت ما قاله حافظاً الحديث في شأن تحريه وامانته واما جحجح فانه وان كان من تلامذة ابي عمر فانه من خصيصي اصحاب ابن دريد وهو راوي جمهرته وحامل علمه وكان ابن دريد يطعن على ابي عمر كما قد عرفت فلعل هذا الداء سرى اليه من شيخه ولعل اعجابه به حمله على تسليم رأيه في معاصر له وقد تقرر عند المحدثين وهم اصحاب هذا الشأن وفرسان هذا الميدان ان المعاصرين والأقران لا يعبأ بقول بعضهم في بعض ولئن جنحنا لذلك لم يسلم لنا احد ولا ابو بكر بن دريد نفسه فهذا نفطويه وصاحبه ابو منصور [1] الازهري يرميان ابابكر بكل سوأة سوآء وحسب ابي عمر بتوثيق [2] اصحاب الحديث له بلا خلاف فقد رووا ان المحدثين كانوا يوثقونه وقال الخطيب البغدادي رأيت جميع شيوخنا يوثقونه و يصدقونه :

اذا رضيت عليَّ بنو قشير لعمر الله اعجبني رضاها

واما اصل الخواج [3] فقال ابو علي الحاتمي اخرجنا في اماليّ (ابي موسى) الحامض عن ثعلب عن ابن الاعرابي الخواج الجوع ٠ ونقل الذهبيّ عن رئيس الرؤساء قال قد

---

(١) قال في مقدمة تهذيبه (أدبا ٦ : ٤٨٦ والمزهر ١ : ١٥٨) وممن ألف الكتب في زماننا فرُمي بافتعال العربية وتوليد الألفاظ وإدخال ماليس من كلام العرب في كلامها ابو بكر بن دريد وقد سألت عنه ابراهيم بن عُرفة يعني نفطويه فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته الخ ٠ (٢) قال ابن جني في الخصائص (المزهر ٢ : ٢٦٢) ولله ابو العباس احمد بن يحيي وتقدمه في نفوس اصحاب الحديث ثقة وامانة وعصمة وحصانة وهم عيار هذا الشأن واساس هذا البنيان ٠ (٣) الكلمة أغفلها صاحبا اللسان والتاج فلتستدرك عليهما ٠

رأيت اشياء كثيرة مما استنكر على ابي عمر ونسب الى الكذب فيها مدونة في كتب أئمة العلم وخاصة في غريب المصنف لابي عبيد او كما قال . والاصل في ذلك ان رواة الكوفة معروفون بسعة الاطلاع وغزارة المادة ووفرة الرواية و بالتسامح في امر التحفظ خلافاً للبصريين الذين قلت روايتهم لتثبتهم وعدم مسامحتهم . فقد صدق ما قاله تلميذ ابي عمر ابو القاسم عبد الواحد بن برهان الاسدي فيه : « لم يتكلم في اللغة احد من الاولين والآخرين باحسن من كلام ابي عمر الزاهد » .

وفاته = وُلد بلا خلاف سنة ٢٦١ هـ وعن ابن رزقويه تلميذه انه توفي سنة ٣٤٤ هـ قال الخطيب والصحيح انه توفي يوم الاحد (ودفن يوم الاثنين) لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ٣٤٥ هـ وذلك في خلافة المطيع ودُفن في الصفّة التي تقابل قبر معروف الكرخي وبينهما عرض الطريق ولعل سبب إبطائهم بنعشه الى اليوم التالي هو ما نقلناه عن تاريخ ابن الوردي في كتابنا على ابي العلاء[1] عن ابي العلاء ان البغداديين حدّثوه بها انه لما عبرت السُّنّة (اهل السنة) بابي عمر [الزاهد] في الكرخ وهم شيعة بغداد وحوله التكبير والتهليل قال قائل هذا والله لا كمن دُفنت ليلا يعني فاطمة عليها السلام فثار اهل الكرخ وقُتل بينهم جماعة وطُرح ابو عمر عن النعش وجرح جراحاً كثيرة .

ثبتُ تآليفه مرتبة على حروف المعجم =

(١) كتاب البيوع
(٢) كتاب التُفّاحة
(٣) كتاب تفسير اسماء الشعراء كما عند النديم وفي الادباء القراء وفي الكشف اسماء الشعراء
(٤) جزء كذا في الكشف (ولعله الذي في فضائل معاوية المار ذكره)
(٥) حل المداخل مر ذكره
(٦) كتاب الساعات
(٧) كتاب السريع

(١) ص ١٤٨ .

(٨) شرح الفصيح

(٩) كتاب الشورى

(١٠) كتاب العشرات أحال عليه ياقوت في بلدانه كثيراً وقد بقي منه نسخة بخزانة برلين انظر فهرستها رقم ٧٠١٤ واوله حدثنا ابن خالويه .... هذا كتاب العشرات لابي عمر الزاهد ألفها للحُصَري (كذا مشكولاً) صاحب ابي عمر القاضي خاصةً وكان ابو عمر يعارض بكتبه ويؤلف له فاعتل ابو عمر فأرسل اليه ان انفذ اليَّ اجرة شهر فاني عليل الخ وهو في ٨٧ ورقة .

(١١) غريب الحديث صنفه على مسند احمد بن حنبل قال النديم [١] هو للحضرمي (كذا وطبعة الفهرست مصحفة للغاية) الّفه عن ابي عمر الزاهد قال ابن خلكان وكان يستحسنه جداً . وذكره ابن الاثير في مقدمة نهايته ايضاً .

(١٢) فائت الجمهرة والرد على ابن دريد وقف عليه البغدادي وأحال [٢] عليه .

(١٣) فائت العين

(١٤) فائت الفصيح جزء لطيف كنت رأيت منه نسخة قبل نحو خمسة أعوام عند من يحتكره وفي فهرست [٣] ابن خير حدثني به ابو عبدالله جعفر بن محمد بن مكي عن ابي مروان عبد الملك بن سراج (ككتاب) عن ابي القاسم ابن الافليلي عن ابي عمر بن ابي الحباب عن ابي علي البغدادي عن ابي عمر الزاهد — وهو في كراسة .

(١٥) فائت المستحسن الآتي

(١٦) كتاب القبائل

(١٧) كتاب الجرجاني

(١٨) الكتاب الحصري (الادباء الحضري) كتاب على الكلمات عمله للحصري وانحله اياه .

(١٩) ما انكره الاعراب على ابى عبيد فيما رواه او صنفه كذا عند النديم وغيره وفي الادباء والبغية ابى عبيدة ولعله تصحيف .

---

(١) ص ٨٨ . (٢) الخزانة (٣ : ٤٢١) . (٣) ص ٣٣٩ .

(٢٠) كتاب المداخل هو الذي نعرضه على الأنظار ومرّ وصفه وذكر زيادات له عليه والحل ايضاً ·

(٢١) كتاب المرجان

(٢٢) كتاب المستحسن في اللغة ومر فائته

(٢٣) معجم الشعراء في الكشف فقط

(٢٤) كتاب المكنون والمكتوم

(٢٥) كتاب الموشح وفي الوفيات فقط الموضح

(٢٦) كتاب النوادر لاأدري هل هو كتاب له او هو نوادر ابي شبل العقيلي الذي قال فيه النديم[1] رأيته بخط عتيق باصلاح ابى عمر الزاهد ·

(٢٧) كتاب اليواقيت او الياقوتة وقف عليه صاحب[2] الخزانة وقال ابن خير[3] الإشبيلي حدثني به الشيخ ابوعبد الله محمد بن عبدالرحمن بن معمر رحمه الله قال حدثني به الوزير ابو بكر محمد بن هشام بن محمد المصحفي قال حدثني به ابي رحمه الله وابوالحسن علي بن محمد بن ابي الحسين قراءة مني عليهما وقالا معاً قرأناه على ابي سليمان عبدالسلام بن السمح الموروري الشافعي قال قرأته ببغداذ على ابي عمر محمد بن عبدالواحد المطرز الزاهد غلام ثعلب وذلك في شهري ربيع من سنة ٣٣٤هـ وذكر النديم خبر هذا الكتاب وكيف صح قال قرأت بخط ابي الفتح عبيدالله بن احمد النحوي عليه وكان صدوقاً بحاثاً منقراً وكان ابوعمر ···· ابتدأ باملاء هذا الكتاب يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ٣٢٦هـ في جامع المدينة مدينة ابي جعفر ارتجالاً من غير كتاب ولا دستور فمضى في الاملاء مجلساً مجلساً الى ان انتهى الى آخره وكتبت ماامله مجلساً مجلساً ثم رأى الزيادة فيه فزاد في أضعاف ماامليٰ وارتجل يواقيت أخر واختص بهذه الزيادة ابامحمد الصفار لملازمته ونكير قراءته لهذا الكتاب على ابي عمر

(١) ص٤٦ · (٢) انظر حوالاته (١ : ١١ : ١٦٥ — ٢ : ٥٢٥ — ٣ : ٤٢٩)

(٣) ص ٣٥٧ — وفي ص ٦٠ إسناد ياقوتة الصراط في غريب القرآن عن ابى بكر احمد بن ابراهيم المقرئ عن ابي عمر ، وعن ابي الحسين بن بشران عنه · ومن ذلك يظهر انهم كانوا يفرزون هذه الياقوتة من جملة اليواقيت ·

فأخذت الزيادة منه · ثم جمع الناس على قراءة ابي اسحق الطبري له وسمى هذه القراءة الفذلكة فقرأ عليه وسمعه الناس ثم زاد فيه بعد ذلك فجمعت انا في كتابي الزيادات كلها وبدأت بقراءة الكتاب عليه يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٣٢٩ ه الى ان فرغت منه في شهر ربيع الآخر سنة ٣٣١ ه وحضرت النسخ كلها عند قراءتي نسخة ابي اسحق الطبري ونسخة ابي محمد الصفار ونسخة ابي محمد ابن سعد القُطْرَبُّلي ونسخة ابي محمد الحجازي وزاد لي في قراءتي عليه اشياء · فتوافقنا في الكتاب كله من اوله الى آخره ثم ارتجل بعد ذلك يواقيت أخر وزيادات في أضعاف الكتاب واختصّ بهذه الزيادة ابومحمد وهب للازمته · ثم جمع الناس ووعدهم بعرض ابي اسحق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرضة يتقرر عليها الكتاب فلا يكون بعدها زيادة وسمى هذه العرضة البحرانية واجتمع الناس يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى سنة ٣٣١ ه في منزله بحضرة (منزله ابي العنبر) فأملى على الناس ما نسخته :

« قال ابوعمر محمد بن عبدالواحد هذه العرضة هي التي تفرد بها ابواسحق الطبري آخر عرضة أسمعها بعده (بعدها) فمن روى عني في هذه النسخة هذه العرضة حرفاً واحداً ليس من قولي فهو كذاب عليّ وهي من الساعة ···· الى الساعة ···· من قراءة ابي اسحق على سائر الناس وانا أسمعها حرفاً حرفاً » · قال ابو الفتح و بدأ بهذه العرضة يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى سنة ٣٣١ ه اه على طوله ·

أقول ولله من قال :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى　　كما قرّ عيناً بالإياب المسافرُ

قال العاجز وقفت بخزانة رامبور على نسخة مضبوطة صحيحة من شرح الفصيح تأليف ابي القاسم عبد الله بن عبد الرحيم الاصفهاني وقد بقيت في ملك الشيخ محمد الشيبي فاتح بيت الله الحرام · وثبت على الصفحة الاولى منه فصل من اليواقيت سطا عليه المجلد وهذا نصه وفصه : قال الفرّاء[1] كلام الفصحاء من العرب أحببته فهو محبوب على غير القياس الا ان عنترة جاء به على القياس وقال :

---

(١) حكى مثله الأزهري عن الفراء ايضاً كما في اللسان ·

ولقد نزلتِ فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم

ومن العرب من يقول حببته أحِبّه ومنهم من يقول إحِبّه قال وأنشدني ابو ثروان :

إحبّ لحبّها السودانَ حتى ... إحبّ لحبّها سودَ الكلاب

قال الفراء فكسر الالف وفتح البـاء . وسلطان «حتى» ان ترفع وتنصب وتخفض على ما نص .... من الإعراب تقول من ذلك اكلت السمكة حتى رأسُها وحتى رأسِها وحتى رأسَها قال وأنشدني[1] الكسائي :

القى الصحيفة كي يخفف رحله ... والزاد حتى نعلُه القـاها

ونعلَه ونعلِه . وسلطانها على المـ[ستقبل] ..... فتنصبه وترفعه فنصبه على بابه (اي بإضمار أنْ) ورفعه على ان يكون في معنى الماضي . قال وقرأت القرّاء « وزُلزلوا حتى يقولَ الرسول» و«حتى يقولُ الرسول» اي حتى قال . وسمعت المبرّد يقول وقد سئل عنها فقال اذا رفع .... فمعناه وزلزلوا حتى الرسولُ قائل . وأنشد[2] ثعلب والمبرد جميعا :

مطوتُ بهم حتى تكِلُّ مطيّهم ... وحتى الجياد ما تُقاد بارسان

اي حتى كلّت مطيهم . قال الفراء : وأخبرني الكسائي انه سمع العرب ... سرت حتى ادخُلُها وحتى ادخُلَها وما زلت اسير حتى أدخُلَها وحتى أدخلُها ولا أزال أسير حتى أدخُلَها اهـ . من كتاب اليواقيت[3] لابي عمر الزاهد .

(٢٨) كتاب يوم وليلة وتمام اسمه عند البغدادي في خزانته وقد[4] وقف عليه كتاب اليوم والليلة والشهر والسنة والدهر .

عليكرة (الهند) : عبد العزيز الميمني الراجكوتي

---

(١) لابي مروان النحوي او للمتلمس . (٢) لامرئ القيس . (٣) قالوا انه املى في آخر كتابه اليواقيت في اللغة قوله :

لما فرغنا من نظام الجوهرة ... اعورّت العين وفُضّ الجمهرة

ووقف الفصيح عنـد القنطرة

يريد بالجوهرة كتاب الياقوتة

(٤) راجع حوالاته في الخزانة (١ : ١١ — ٢ : ٢٩١ — ٣ : ٤٨٣ و٤٨٤) .

هواء المدن[1]

لا يغرب عن معارفكم سادتي ان علم الصحة أس من الأسس الراسخة المتينة التي يشيد عليها هذا البناء البشري وأنه اذا انحصر في فرد او أفراد لا يكون مفيداً نافعاً فلو رعى احد أفراد أسرة مؤلفة من اربعة أشخاص مثلاً علم الصحة رعاية دقيقة وحفظ دقائقه حفظاً لا تشوبه شائبة ولم يحظ الثلاثة الباقون منه الا اسمه لما حصلت الغاية المرادة من هذا الفن ولما كسب ذلك المحافظ من حفاظه ما كان يؤمل الحصول عليه لان ما يصلحه في نفسه ومحيطه بسيره في سبل هذا الفن الاساسي يفسده الثلاثة الآخرون باهمالهم كيف لا وهم يسكنون معه مسكناً واحداً ويغتذون بطعام واحد و يشربون ماءً واحداً . ولا تختلف حالة الأسرة هذه عن حالة كل مجتمع انساني ولاسيما عن المدن حيث الازدحام كبير ، فان علم الصحة لا يكون مفيداً الا اذا رعاه بعض السكان وأهمله بعضهم او اذا سار بموجبه الشعب جميعه ولم تسر الحكومة فان من القواعد الصحية ما هو عام يترتب على الحكومة وضع قوانينه ومراعاتها . فكيف يؤمل لمدينة من المدن هواءً جيداً اذا لم تكن طرقها العامة مخططة كما تقتضيه قواعد علم الصحة ولم تكن عريضة متسعة يتجدد الهواء فيها وترسل اليها الشمس أشعتها الذهبية متلفة ما يعلق بها من الجراثيم المبيدة او لم تكن منازلها مبنية على الطراز الحديث مرعية فيها شروط مهب الارياح وشروق الشمس وغروبها وسعة النوافذ ووجهتها بل كيف نرجو لمدينة هواءً جيداً اذا لم تكن مياهها شروبة خالية من المواد المضرة بالصحة العامة وعارية من الجراثيم المرضية او اذا لم تكن غزيرة كافية للحاجات العامة ، بل كيف نرجو لمدينة حظاً من سلامة الصحة العامة فيها اذا لم تكن المفرزات التي تفرزها أجساد سكان تلك المدينة من بشر وحيوان مسوقة في قنوات محكمة لا تنبعث منها الروائح النتنة ولا تتدفق منها على سطح الارض الأقذار

---

(١) محاضرة القاها الاستاذ الطبيب مرشد خاطر في ردهة المجمع العلمي بتاريخ ١ شباط سنة ١٩٢٣ م ولهذه المحاضرة علاقة بالمحاضرة الاخرى التي كان القاها الطبيب المومأ اليه بعنوان (تأثير الطرق في هواء المدن) راجعها في المجلد الثامن ص ٣٩٥ .

الكريهة الرائحة ولا تتسرب من جدرانها في مجاري الماء الشروب السائرة معها جنباً الى جنب او في الآبار الواقعة في نقطة منخفضة من الارض اختمارات قتالة تلوث المياه وتميت الالوف . بل اذا لم تنقل بقايا المواد الغذائية التي تملأ الطرق العامة نقلاً سريعاً وحسناً دون ان يتلوث بها المارون . ولهذا نشطت اليوم المدن وهبت للسير في مضمار علم الصحة فتفاخرت كل عاصمة ومدينة سواها بجمالها وجمعها لشتات القواعد الصحية الحديثة فلم تعد تتوق النفس الى المدن القديمة الضيقة الطرق التي تطوقها الأسوار والخنادق من كل جهاتها ، الى تلك المدن التي كانت تظلم شوارعها بعد غروب الشمس فلا نور يضيئها ليلاً ، الى تلك المدن التي لم تكن ترصف أسواقها وجاداتها رصفاً يمنع ذرات الغبار عن الاختلاط بالهواء المستنشق بل كانت حفراً ومجاري تسيل فيها مياه الشتاء والمياه القذرة ممتزجة ، بل تتوق النفس في ايامنا الحاضرة الى المدن الحديثة البناء الرائعة الهندسة المتسعة الشوارع المرصوفة الجوادّ ، ولم يكن ذلك الانقلاب الغريب في الافكار والتطور السريع في الهندسة الا نتيجة اكتشاف صغير قام به احد العلماء الفرنسيين الذي مر على ولادته قرن كامل اريد بذلك الاكتشاف الجرثوم الذي لايرى و بذلك العلامة باستور قلت انالاكتشاف صغير وهو صغير كبير صغير لان العين المجردة لاتراه ولانه لايدرك الا بعد تكبيره بضع مئات من المرات و كبير لانه نفخ في العالم روحاً جديدة فسارت تلك الروح من تحت مجهر ذلك العلامة تدب في جميع اطراف البسيطة ملقية في النفوس المضطربة سلاماً وفي القلوب الهالعة من الامراض اطمئناناً وسكوناً ، كبير لانه دك على الرغم من صغره كل ماقامت به العقول المفكرة والايدي العاملة ومد سيطرته الى الارض جميعها . فالى ذلك العلامة الكبير نوجه من هذا المنبر كلمة الاجلال والتكريم .

ان علم الصحة في المدن لغز من الالغاز المغلقة التي لا يحلها الا من كان عالماً بها متضلعاً منها ولهذا وجب ان لايتولى الشؤون الصحية في المدن الا من كان اختصاصياً بها فلا البلديات ولا المهندسون ولا الحكومة تحسن عملاً ان لم تسترشد بارشاد رئيس صحي اختصاصي يدير دفة العمل و يسير بالاصلاحات طبقاً للقواعد الصحية الحديثة .

فيفهم مما تقدم ان علم الصحة ان لم تشترك به الجماعة قبل الافراد والحكومة قبل

الجماعة لا يأتي بثمار لذيذة وفوائد تذكر ولهذا اردت ان أبين لكم في هذه المحاضرة شرطاً واحداً من الشروط الاربعة التي تحسن بها الصحة العامة في المدن وهو جودة الهواء وما يؤثر فيه من المؤثرات فيفسده او يصلحه تاركاً الشروط الثلاثة وهي الطرق العامة والقنوات والماء المشروب الى محاضرات أُخرى فاقول :

سبعة مؤثرات تؤثر في هواء المدن فتصلحه اذا صلحت وتفسده اذا فسدت وهي :

١ = الموقع الجغرافي وينطوي تحته اربعة امور : الارتفاع عن سطح البحر وتركيب الارض الجيولوجي ومسيل المياه ومهب الرياح ٠

٢ = غرس الأشجار ووجود الساحات الفسيحة ٠

٣ = تلوث الهواء بغبار الطرق العامة الناقل للجراثيم المرضية ٠

٤ = تلوثه بالروائح الكريهة والدخان وما ينبعث من المصانع والمعامل من غبار المعادن وسواها ٠

٥ = ضرر المدافن فيه

٦ = فساده بنقل المواد الغائطة ٠

٧ = تأثير حالة الطرق العامة فيه وينطوي تحته ميل الطرق وهيئتها وأرصفتها ومجاريها ووجهتها وتعرضها للشمس وهندسة بيوتها ٠

وسأقتصر في هذه المحاضرة على درس المؤثرات الثلاثة الاولى تاركاً المؤثرات الاربعة الباقية لان كلاً منها يستغرق محاضرة خاصة ٠

(١) الموقع الجغرافي = لا اجد بداً قبل البدء بالكلام عن الموقع الجغرافي وتأثيره في جودة الهواء وفساده من ان أنفي اعتقاداً كان ولم يزل شائعاً اعتقاداً تقلص ظله من البلاد الاوربية بعد ان ارتقت مدنها رقياً صحياً كبيراً ولا يزال شائعاً عندنا لاننا لم نسع حتى الآن الى تحسين الحالة الصحية في مدننا تحسيناً يحملنا على دحض ذلك الاعتقاد٠ شاع منذ زمن طويل ايها السادة ولعله لا يزال شائعاً حتى الآن بين السواد الاعظم منا هذا الاعتقاد الذي مؤداه : ان هواء المدن اقل ملائمة للصحة من هواء القرى لست انكر ذلك والاحصاآت القديمة كانت تثبته في القرون الماضية الا انني اليوم بعد بلوغ علم الصحة الى درجة عالية من الرقي وتوفر الشروط الصحية في المدن وفقدان هذه الشروط

في القرى أتمكن من اثبات العكس . أقول هذا عن المدن الاوربية والاميركانية لا عن مدننا السورية وأقر وأعترف ان الهواء في مدننا لم يبلغ حتى الآن الى درجة من الجودة تعادل جودة هواء القرى المشيدة في البر . اما في اوربا واميركا فقد اختلفت الاحصاآت كثيراً اذ دلت احصاآت (لانيو) عن البلاد الفرنسية سنة ١٨٨٠ ان الوفيات كانت معادلةً في المدن لمائتين واربع واربعين وفاة في كل عشرة آلاف نسمة وانها في القرى لم تبلغ الا مائتين وثماني وفاة لاغير وهذا يثبت الاعتقاد القديم الا انها في سنة ١٩١٢ قد اختلفت اختلافاً بيناً فان الوفيات في المدن هبطت الى مائة واحدى وتسعين وفاة وفي القرى الى مائة وسبع وتسعين وهذا ينفي الاعتقاد القديم ويثبت مانحن بصدده . وقد وضعت الحكومات قانوناً تحدد به عدد الوفيات حتى اذا اجتيز هذا الحد سعت الحكومة الى تحسين الحالة الصحية وانقاص ذلك العدد الى حده المعين واما الحد الذي عينته فهو مائة وثلاث وتسعون وفاة في كل عشرة آلاف نسمة فهل نسعى الى مراعاة هذا القانون في بلادنا ؟ سؤال ادع الجواب عنه اليكم .

اما وقد نفيت ذلك الاعتقاد نفياً مبنياً على الاحصاآت فانني أعود الى الكلام عن الموقع الجغرافي : تقسم المدن ستة أقسام كما قسمها الدكتور فونساغريف (Fonssagrifes) المدن المشيدة في السهل ، والمدن المبنية في الأودية ، والمدن البحرية ، والمدن النهرية ، والمدن القائمة على البحيرات ، والمدن الرزغية . (اي التي تكثر في ارضها المستنقعات) .

اما مدن السهل التي تقام في ارض مستوية قليلة الارتفاع عن سطح البحر وكثيرة البعد عن مجاري المياه الغزيرة فان الشروط الصحية تتوفر فيها اذا لم تركد المياه في ارضها فتحولها الى مستنقعات شديدة الضرر .

واما مدن الاودية فلا ينالها من اشعة الشمس المنعشة الا نذراً قليلاً لما يكتنفها من الجبال فكلما كان الوادي ضيقاً وعميقاً نقصت الشروط الصحية في هذه المدن .

واما المدن البحرية التي تقوم على شاطئ بحر تختلف فيه حركتا المد والجزر اختلافاً بيناً كبيراً فان درجتها الصحية احط من المدن التي تبنى على شاطئ بحر حركتا مده وجزره خفيفتان لا يكاد يشعر بهما وذلك لان حركة الأمواج حين المد تقذف بعيداً الى الشاطئ المواد العضوية الكثيرة فتتفسخ وتختمر وتفسد الهواء وعدا ذلك فان ماتصبه

المجاري والقنوات من المواد القذرة والمياه الملوثة في البحر اي كل ما يطرحه الانسان والحيوان يعود بتأثير المد الى حيث اتى فينتشر على الشاطئ بعد ان كان منحصراً في القنوات و يفسد الهواء و يضر ضرراً جسيماً ٠

واما المدن النهرية فان مقامها الصحي بين المدن رفيع للغاية لان جريان النهر يحرك الهواء تحريكاً دائماً فيجدده و ينقل ما فسد منه مستعيضاً عنه باصلح فان النهر بجريان مائه الدائم يشبه موقداً تضطرم فيه النيران متصلاً بمجرى عال فكما ان الموقد يجدد الهواء في الغرفة آتياً بالجيد منه الى الداخل ودافعاً ما فسد وسخن منه الى الخارج فان لجريان ماء النهر التأثير نفسه ٠ وعدا هذا فان المياه التي تحتاج المدن الكبرى الى كميات وافرة منها لقضاء الحاجات العامة لا يكاد يتوصل اليها اذا لم تخترق انهر طبيعية هذه المدن ولهذا كانت الشروط الصحية متوفرة في المدن النهرية لغزارة المياه فيها على ان لا تتلوث هذه المياه بما ينصب فيها من المجاري والمراحيض فيتناول ضررها عدا المدينة نفسها جميع القرى الواقعة تحتها ٠

واما مدن البحيرات فهي ذات هواء رطب للغاية سواء قامت على شاطئ البحيرة او شيدت على اعمدة مرتكزة في قعرها الا ان هذه الرطوبة قد يخف ضررها بتأثير الارياح التي تهب عاصفة في تلك المدن فتخفف من رطابة هوائها او بتأثير الحرارة العالية نفسها ٠

واما المدن القائمة في اراض يكثر فيها السباخ اي الواقعة على مصب الانهر فهي اشد المدن انحطاطاً من الوجهة الصحية فان البرداء (اي الملاريا) تفتك بالعدد الوافر من ساكنيها ٠

فيستنتج مما تقدم ان دمشق وهي مدينة تخترقها الانهر الغزيرة ذات موقع جغرافي حسن فهي قائمة في سهل تكتنفه الجبال البعيدة فالى الشمال جبل قاسيون الممتد من الربوة حتى ثنية العقاب حيث يبدء جبل القلمون وفي سفحه حي الصالحية والمهاجرين والى الشمال الشرقي جبل القلمون (يوناني معناه القصب) وهو يبعد عن المدينة خمسة كيلو مترات او ستة والى الغرب الجنوبي جبل الشيخ وهو يبعد ثلاثين كيلو متراً عن دمشق و به تمر الرياح الغربية الجنوبية الباردة في فصل الشتاء ٠ وامام جبل الشيخ تقوم جبال الربوة والمزة وتبعد عن دمشق زهاء ثلاثة كيلو مترات والى الجنوب جبال حوران الممتدة حتى البادية

وتبعد عن دمشق ثلاثين كيلو متراً ، والى الشرق البادية المطلقة ومنها تهب الرياح الحارة في فصل الصيف والى الشرق الجنوبي تمتد الغوطة حتى بحيرة الهيجانة التي يصب بها نهر بردى تلك البقعة التي يكثر فيها السباخ والمستنقعات .

فموقع دمشق الجغرافي متوفرة فيه الشروط الصحية لان الجبال التي تكتنف المدينة بعيدة لا تمنع الشمس عن ارسال أشعتها القاتلة للجراثيم ولا توقف الارياح العاصفة عن الوصول الى المدينة فتجدد حتى في أضيق أزقتها الهواء تجديداً دائماً . واما وجود الغوطة في الجهة الشرقية من المدينة يجعل البعوض يتكاثر والبرداء وحمى الايام الثلاثة تتفشيان تفشياً شديداً وليس الذنب في ذلك على الطبيعة وحدها ولكن معظم الذنب علينا فلو اهتمت الحكومة بتجفيف تلك المستنقعات مهما كلفها الامر من المال لحسنت الحالة الصحية وهو مشروع تفوق فائدته اكبر المشاريع وأعظمها .

(أ) الارتفاع عن سطح البحر : أمرُّ الآن الى الفرع الاول من الفروع الاربعة التي تنطوي تحت الموقع الجغرافي وهو الارتفاع عن سطح البحر . ان الارتفاع يؤثر شديداً في هواء المدن فيصلحه او يفسده ولعله أقوى المؤثرات وأهمها حتى ان بعض علماء الصحة يرى فرقاً بيناً بين حي وآخر من أحياء مدينة واحدة لا يتجاوز فرق ارتفاعهما عشرين متراً او اربعين والبرهان على ذلك جليّ واضح في دمشق فان حي الصالحية والمهاجرين القائم في سفح جبل قاسيون أجود هواء من سائر أحياء دمشق لانه اكثر ارتفاعاً منها .

ولا يظهر هذا الفرق واضحاً الا في المدن التي لا يقل ارتفاعها عن اربعمائة متر او في المدن التي لا يزيد ارتفاعها عن الخمسين واما في المدن التي يتراوح ارتفاعها بين الخمسين والاربعمائة فان بضع عشرات من الامتار لا تكفي لجعل فرق واضح بين حي وآخر من أحيائها وان دمشق التي يعادل ارتفاعها في أرجائها المتوسطة ستمائة وخمسين متراً يظهر هذا الفرق فيها بين حي الصالحية والأحياء الأخرى لانها تتجاوز حد الارتفاع الذي عينته وهو اربعمائة متر وهكذا يقال في بيروت وطبريا من مدن سورية وفلسطين فان بيروت التي تعلو عن سطح البحر في أرجائها الواقعة على الشاطئ بضعة أمتار لا غير تربنا ما أرتنا دمشق من تبدل الهواء في أحيائها فان حي الأشرفية مثلاً الذي يقع على ارتفاع خمسين متراً ونيفاً يختلف هواؤه اختلافاً محسوساً عن سائر الاحياء كرأس بيروت وسواه

وماذلك الا لان المدينة واقعة تحت الحد الأدنى للارتفاع الذي عيناه ومايقال في بيروت يقال في طبرية التي تنخفض عن سطح البحر المتوسط ٢٣٦ متراً فان بين الطبقة والأخرى من بيوتها يختلف الهواء اختلافاً واضحاً .

وان للارتفاع حداً اذا تجاوزه أضرّ بالصحة ضرراً بليغاً لان الضغط الهوائي ينقص كلما علت المدينة ، وكلما خف الضغط الهوائي نقصت كمية الاوكسجين في الهواء فينشأ عن ذلك النقص تبدل محسوس في الصحة كما أثبتت التحريات المديدة التي أجراها كثير من الأطباء في أماكن مختلفة الارتفاع . غير انه لا مدينة من مدننا السورية تبلغ حد الارتفاع المضر لانه يقع بعد الف وخمسمائة متر . وهذا لا نجده الا في بعض قمم جبالنا . وخير المدن هواء ماتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين سبعمائة والف متر .

(ب) واما من الوجهة الجيولوجية او تركيب طبقات الارض فتقسم المدن الى صخرية ورملية وصلصالية ولحقية وهي ارض مركبة جيولوجياً من مواد كانت عالقة بالماء فرسبت بعد نضوب الماء منها. وقد أضيف الى هذه الاقسام الاربعة في ايامنا هذه قسم خامس وهو المدن التي تقام على ارض اصطناعية .

فالمدن الصخرية أجود هواءً من سائر المدن الاخرى من الوجهة الجيولوجية هذا اذا لم تأت أسباب أخرى فتفسد هواءها وان مايجعل المدن الصخرية في مقدمة المدن جودة صلد ارضها اي عدم نفوذها وسيلان المواد العفنة والمياه القذرة عليها دون ان تمتصها الارض فتبقى كامنةً فيها وتنشر الاوبئة والامراض متى تيسرت لها الذرائع الملائمة .

واما المدن الرملية فلا تعد ملائمة للصحة الا متى كانت الطبقة الواقعة تحت الرمل غير صلداء لانها اذا كانت صلصالية اجتمع الماء فيها ورطب الارض وكانت تلك الطبقة كخزانات للمواد العفنة تجتمع فيها فتلوث طبقة الارض السطحية وتفسد الهواء .

واما المدن اللحقية فانها مدن يكثر فيها السباخ وتتوفر فيهـا الشروط الملائمة لنمو البعوض وتكاثره ولهذا كانت البرداء (الملاريا) من الامراض التي تتفشى في هذه المدن فتفسد هواءها .

(ج) وان لموقع المدينة بالنسبة الى انصباب المياه فيهـا أهمية كبرى من الوجهة الصحية فاذا كانت المدينة في قعر وادٍ تحيط به الجبال وتنصب فيه المياه المتدفقة منها

مخترقةً تلك المدينة فان ارضها تكون رطبة ومضرة . ولكن مهما كان موقع المدينة فانها تعد غير صالحة للسكنى اذا كانت طبقة أرضها الصلدة واقعةً على عمق قليل لان المياه بعد اختراقها لطبقة الارض القابلة للنفوذ تجتمع في تلك الطبقة السطحية وتعلو بسهولة الى سطح الارض فتغوص جذوع النباتات والاشجار دائماً في بحيرة مائية ولا تخصب تلك الارض قط هذا فضلاً عن ضررها الشديد بالصحة واما اذا كانت الطبقة الصلداء عميقة فان المياه تبعد عن سطح الارض فيجف الهواء وتخصب الارض ولهذا قال الدكتور فونساغريف إن عمق الآبار في المدينة دليل على جودة هوائها فكلما كانت الآبار عميقة أخصبت الارض وجف الهواء وكلما كانت آبارها سطحية قل خصب الارض ورطب الهواء .

ان دمشق متوفرة فيها من الوجهة الجيولوجية ومسيل المياه الشروط الملائمة للصحة لان آبارها عميقة لا يوصل الى الماء فيها قبل حفر عشرات من الامتار وهذا ما يجعل ارضها خطباً وهواءها جافاً لان طبقة أرضها الصلصالية عميقة .

(د) اما الارياح التي تنقل الرطوبة اوالجفاف فان لها الاهمية الكبرى من الوجهة الصحية لان لها حسنات وسيئات فمن حسناتها تجديد الهواء واستبدال ما أشبع منه بذرات الفحم وحامض الفحم وسائر المواد الأخرى المضرة بهواء آخر آتٍ من البحر والجبل وصالح للتنفس وتنقية الدم وهذه التهوية الطبيعية لا بد منها في مدن يكثر عدد سكانها وتتراصف بيوتها وتقام فيها الابنية الشاهقة المتعددة الطبقات . ومن سيئاتها أنها متى كانت خفيفة حملت الغبار الملقى على الارض فتطاير في الفضاء ناقلاً معه الجراثيم المرضية ولهذا كانت الأرياح الهادئة شديدة الضرر لتنشر حين هبوبها الاوبئة في المدن انتشاراً سريعاً فملافاةً لهذا المحذور واتقاءً لهذا الضرر الجسيم يجب علينا أن نجعل الغبار ملتصقاً بالارض فنكثر من رش الأسواق والمنعطفات ولا تدع للارياح تأثيراً فيه .

فاذا عصفت الارياح شديدةً في دمشق فأزعجتنا وأضرت ببعض الابنية واقتلعت بعض الاشجار وحالت دون التجول فانها رسول أمين يجب أن نكون له من الشاكرين كيف لا وهي التي تجدد الهواء حتى في أضيق المنعطفات ، في تلك الأزقة التي تقوم

البيوت من جانبيها فلا يفصل نافذة البيت الواحد عن نافذة الآخر الا متران او اقل فهي التي تأتينا بالهواء النقي من قمم الجبال الشامخة حيث لا جراثيم ولا غبار ولا مواد مضرة .

(٢) غرس الاشجار ووجود الساحات الكبيرة = ان هذا المؤثر الثاني في جودة الهواء كثيراً ما نمر به في يومنا دون ان نتأمل ثانيةً واحدةً بما له من الفضل علينا .

ان الأشجار التي تغرس أيها السادة ، في الشوارع الكبرى والأسواق العريضة والساحات الفسيحة المطلقة التي لا بناء فيها تؤثر تأثيراً شديداً في حالة الهواء فانها من العوامل التي تبدل تركيب الهواء وتجعله صالحاً للتنفس ومن العناصر التي تصلح حالة الارض وتجففها فان أوراق الاشجار تمتص من الهواء حامض الفحم وتحوله الى فحم فتغتذي به والى اوكسجين لاتحتاج اليه فتبعثه بالهواء رحمةً بالانسان والحيوان وان معظم الاوكسجين تلقيه الاشجار بهيئة اوزون وهو من الغازات التي عرفت اليوم قيمتها الكبيرة .

وفضلاً عن ذلك فان الاشجار تمتص قسماً كبيراً من رطوبة الهواء وقد خمن الدكتور ايفار (Ivert) ما تمتصه شجرة واحدة كبيرة مورقة بمائة ليتر ماء كل يوم فكما أنها تمتص من الهواء البخار المائي فتجففه فانها تمتص من رطوبة الارض القسم الاكبر من الماء الذي تحتاج اليه في يومها بجذورها المرسلة بعيداً الى اعماق الارض . وقد قدر مرصدُ (مون-سوري) (Mont Souris) ان الشجرة تمتص من رطوبة الارض خمسة أضعاف ماتمتص من الهواء تحت تأثير حرارة الشمس فكم هي عظيمة كمية الماء الذي تمتصه أشجار احد الشوارع من أرض البيوت المشيدة على أطرافها ؟ .

لا تنحصر فائدة الاشجار بامتصاص رطوبة الهواء والارض ولكن الظل الذي تنشره على الارض يأتي بفوائد جليلة مدة الصيف ولا سيما في البلاد الحارة فانه يقي الكثيرين من الرعن اي ضربة الشمس ، فنفعُ الاشجار اذاً كبير من وجوه عديدة ولهذا يشير علماء الصحة بغرس الاشجار في جانبي الشوارع العريضة ويراعون في غرسها هندسةً خاصة كي لا تضر في البيوت المجاورة لها فتمنع عنها الهواء والنور . ان لهذه القضية أهميتها فقد كانت موضع درس دقيق في المؤتمر الصحي الالماني الذي عقد في درسد (Dresde) سنة ١٨٨٣ وفي المجمع الصحي الدولي الذي عقد في بروكسل عاصمة بلجيكا سنة ١٩٠٣ .

فاذا كان للاشجار التي تغرس على جانبي الشوارع والأسواق هذه الفائدة الكبرى على الرغم من قلة عددها فما عساها ان تكون فائدة الحدائق العامة الفسيحة . ان هذه الحدائق ، هذه الاماكن المتسعة حيث الهواء حرٌّ مطلق وأشعة الشمس حارة ترطبهـا نفحات النسيم البليل المتلاعب باغصان الاشجار . حيث يجلس الانسان لترويح النفس تظلله الاشجار المورقة المزهرة حيث تتنفس الرئتان تنفساً عميقاً يدفع الانسان منهما الهواء المشبع بحامض الكربون و يستبدله بهواء نقي ، حيث يلعب الأولاد و يركضون على ذلك البساط الأخضر النضير ، هبةٌ ثمينةٌ لا ندرك قيمتها تؤثر في صحة الأبدان فتحسنها ، وتروّض الافكار فتجلوها فتأثيرها اذاً جسدي ونفسي في آن واحد .

ان هذه الأماكن تخفف بعض الازدحام الذي نراه في قلب المدينة ذلك الازدحام الشديد الضرر الذي كلما ارتقى علم الصحة ظهر ضرره وسُعيَ الى اجتنابه ولهذا اكثرت العواصم الكبرى والمدن التي تسوسها حكومة راقية من هـذه الحدائق المتسعة غير ناظرة الى المخازن والمساكن والأسواق التي تهدمهـا ولا مبالية بما لها من الأثمان الباهظة ولا ملبية عاطفة محبة المال والثروة ولكنها تجيب ما تتطلبـه الصحة العامة فتنشئ هذه الحدائق التي لا تكسبها بارة واحدة في السنة ولكنها بعكس ذلك تضطرها الى نفقات طائلة لتبقى محافظة على نضارتها وجمالها .

فان في باريس ستاً واربعين حديقة مساحتها ستة وعشرون الفاً وثلاثمائة متر مربع وفي لوندرة أربعين حديقة مساحتها اكثر من مساحة حدائق باريس بالف متر مربع وفي برلين عشرين حديقة تعادل مساحتها خمسة وخمسين الفاً واربعمائة متر مربع اي ضعفي مساحة حدائق باريس هـذا عدا أحراج سباندو (Spandau) وغرانوالد (Grunwald) التي تعادل مساحتها نصف مليون متر مربع .

الا اننا في دمشق لا نجد سوى حديقة واحدة لا تزيد مساحتها عن خمسمائة متر مربع وشارع واحد مشجر لو لم يشق في زمن لم يكن للشعب فيـه حق الاعتراض لما كان لدمشق مع غزارة مياهها وخصب ارضها متنفس يتنفس فيه سكانهـا الهواء النقي . ان شارع النصر قد حسَّن حالة الدمشقيين تحسيناً لا يكتسب بالادوية والغذاء وغيرهما فيا حبذا لو كان في هذه المدينـة منه عشرات غير ان ما يعيض بعض الاعاضة عن هذه

الحدائق والشوارع هو الجنائن البديعة التي تطوق دمشق وتوجد في بعض أحيائها ولولاها لكانت دمشق لا تصلح للسكن ·

اما الساحات الكبيرة الحرة فلا أثر لها عندنا و يا للاسف واذا تكلمت عنها فانني ألمس مسألة أخرى جليلة الفائدة في المدن وهي هندسة الشوارع هندسة حديثة الا انني لا أريد التعرض لهذا البحث في محاضرتي هذه لانه موضوع يستغرق محاضرات وانما اقول كلمة عنه لابين لكم كم هو عظيم اهتمام البلاد الراقية بهذه النقطة الاساسية وكم هو كبير اهمالنا · ان موسيو بو كيا (Beauquia) احد اعضاء المجلس النيابي الفرنسي اقترح سنة ١٩٠٩ أن يرسم لكل مدينة يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة مصور يبين فيه مساحة المدينة وحدائقها العامة واتساعها وعرض طرقها واستقامة تلك الطرق وطرز بناء بيوتها وبكلمة واحدة كل ما يتعلق بتلك المدينة وما يجمع بين جمالها الظاهر وحالتها الصحية وان يطبق هذا المخطط تطبيقاً دقيقاً لا يقبل الاعتراض ولا تراعى فيه مصالح الافراد فهل افتكر اولياء الامور عندنا بوضع مخطط مختصر تحسن به حالة بعض الاحياء التي لا تسكن في دمشق ولنفرض ان مر ذلك الفكر في مخيلتهم فهل برز منه شيء الى حيز العمل ! ·

لست أجهل أيها السادة ان وضع مخطط كهذا يضطرنا الى هدم مدينتنا جميعها غير ان من الامور ما هو مهم وأهم فاذا كان اتباع خطة واحدة في الاسواق وطرز واحد في البناء وعلو واحد في المساكن معها يكسب المدينة رونقاً وبهاء وهواءها جودة فان تخطيط بعض الأسواق العريضة التي تكتنف الاشجار جانبيها وغرس بعض الحدائق العامة الفسيحة في قلب المدينة وايجاد بعض الساحات الحرة المتسعة وكشف الأسواق الضيقة التي لم تدخلها أشعة الشمس منذ بنيت وعدم السماح بتغطية ماهو مكشوف منها لمن الامور الشديدة الاهمية التي لا غنى عنها · وانني أعجب ولعلكم تعجبون معي كيف ان ما أصلحته الطبيعة فكان لهذه المدينة مصدراً للصحة نفسده نحن بايدينا كيف ان يد الطبيعة أسقطت سقف السوق الحميدية رحمة بمن فيها من التجار ومن يمر بها من البشر في كل يوم وكيف ان الحكومة سمحت باعادة هذا الغطاء وحرمان تلك المخازن من أشعة الشمس المنعشة · امر لم أجد له مسوغاً في قوانين البلاد الراقية ·

(٣) أجوز الآن الى المؤثر الثالث وهو الغبار وتأثيره في هواء المدن = ان الغبار

المنتشر في الهواء ينقل معه كثيراً من الجراثيم المرضية متى عصفت الريح ووجدت المجاري الهوائية فتدخل تلك الجراثيم البيوت بطرق متعددة باحذيتنا وأثوابنا و بشرة أجسادنا والحيوانات الداجنة وكل ما في الأسواق من البضائع والمواد الغذائية وتدخل الجراثيم ايضاً البيوت مع الهواء من النوافذ ولهذا كانت البيوت المشيدة على جانبي الطرق التي يكثر فيها الغبار والتي تطرقها السيارات كثيراً معرضة أكثر من سواها لهذه الجراثيم وكان أهلها معرضين أكثر من غيرهم للأوبئة والامراض . وان مايزيد في الطين بلة هو ان سكان تلك البيوت يغلقون النوافذ و يحكمون سدها حذراً من دخول الغبار منها فيفسد الهواء في مساكنهم ولا يعود صالحاً للتنفس فيقعون وهم يطلبون التخلص من شر كبير في شر أكبر . ولا يؤثر الغبار في الانسان والحيوان فقط بل يؤثر في النباتات ايضاً لانها تتنفس ككليهما فان الاشجار متى كسا أوراقها الغبار تذوي وتموت واذا لم تمت تضعف خاصة التنفس فيها فتفقد وظيفتها الاساسية وهي تجديد الاوكسجين وتنقية الهواء الذي يتنفسه الانسان .

ليس الغبار سوى ذرات الأوحال الجافة التي لا يخلو منها مكان من أمكنة دمشق فاذا عاينا تلك الذرات وجدنا فيها أشياء كثيرة رأينا المواد العضوية والجير والبوتاس والصوان والخزف والمواد المعدنية والحامض الفوسفوري والحامض الفحمي وغيرها ووجدنا معها وهذا ما يهمنا أمره كمية عديدة من الجراثيم المختلفة الأنواع . فقد تبين من تحري الدكتورايتكن (Aitken) ان كل سانتيمتر مكعب من الهواء يحتوي في بار يس على مائتين وعشرة آلاف ذرة غبار وانه في لوندرة لا يحتوي الا على مائة وخمسين الفاً لا غير . اما الجراثيم الموجودة فيه فتبلغ مليونين واربعمائة الف جرثومة فاعساها ان تكون حالة الهواء في دمشق والغبار في طرقاتها يحجب نور الشمس ويدخل الصدور بلا استئذان فاذا سارت عربة تركت وراءها ذيلاً من الغبار طو يلاً او نهبت سيارة الارض طائرة عليها التحفت بغطاء من الغبار يسترها والبست المارين منه ثوباً لطيف النسج .

تدخل ذرات الغبار أجسادنا بطريقتين : طريق التنفس وطريق الهضم . قد ثبت في اكثر الاوقات ان انتقال السل يتم بالهواء اي بذرات الغبار التي تنقل معها عصية

كوخ او العامل السلي وقد ثبت ايضاً من المشاهدات السريرية ان تسعة وتسعين في المائة من المسلولين ينتقل السل اليهم بواسطة الهواء الذي ينقل هذه الذرات الى أفواههم فيبتلعونها او الى رئاتهم فيستنشقونها . وبينت تجريبات فلوغ (Flugg) ايضاً ان عدوى السل بطريق التنفس لا تنشأ فقط من قُشاعات المصدورين التي بعد ان تجف وتبددها الريح تُنقل مع الهواء فتدخل رئاتنا بل تنشأ ايضاً من النفثات الصغيرة التي يرشقها المسلول في الهواء أثناء السعال فتنتقل العدوى الى بضعة أمتار .

ولا تظنن ان السل وحده ينتقل بالهواء فان كثيراً من الامراض ينتقل به ايضاً فالحمى التيفية مثلاً تنتقل بالماء والبقول الملوثة كما يعلم جميعنا الا انها تنتقل بالهواء ايضاً وقد اثبتت هذه القضية تجريبات برواردال وميكال ولافران وشانتماس وهي تنتقل ايضاً بالغاز المنبعث من المراحيض كما اثبت ذلك الدكتور تيكبورن (Tich borne) وبملامسة المريض وكل ما تلوث من أثوابه وفراشه .

اجل ان انتقال الحمى التيفية بغبار الهواء امر قليل الوقوع لا يعادل انتقال السل به غيران جرثوم الحمى التيفية شديد المناعة لا تؤثر به حرارة الشمس تأثيرها بجرثوم السل الذي تتلفه ببضع ساعات ولهذا كان خطر انتقاله بالغبار موجوداً .

وكذلك الحالة اي الدوسنطاريا التي أجمع الجميع على انتقالها بالماء نراها تنتقل بالهواء ايضاً ولا سيما في من يتعرضون للغازات المنبعثة من المراحيض او يجاورون الاقذار والمواد الغائطة التي تلقى في الأسواق من آن الى آخر منتظرة رحمة الشمس لكي تبخر ما فيها من المياه القذرة وتجففها فيُسعى عندئذ الى نقلها .

والسعال الديكي (او الشهقة) هذا الوباء الشديد الانتشار الذي يسري باللمس ، قد ينتقل بذرات القشاعات التي يرشقها المريض اثناء نوب السعال وزد على ذلك ان المواد التي ينفثها المريض وهي التي تنسب اليها السراية تتطاير ذراتها بالهواء بعد ان تكون قد التصقت بالاثواب وجفت فتنتقل العدوى .

وذات الرئة تنتقل ايضاً بالهواء وهي مرض ينشأ من جرثوم مرضي خاص يكون في جهاز التنفس فينفث مع قشاعات المريض وينتقل بها بعد ان تلقى على الطرق العامة فتجف ويبددها الهواء . وان ما يساعد على انتشارها شدة مقاومة هذا الجرثوم فهو يبقى

محافظاً على قوته الحيوية اياماً عديدة وربما شهرين كاملين متى كان في مأمن من نور الشمس وملامسة الهواء والاوكسجين وهذه الشروط نراها موجودة في شقوق البلاط وفي تلال التراب المكدسة على زوايا الطرق والأسواق .

اما النزلة الوافدة اي الحمى الاسبانية فلم يجمع كل الأطباء على انتقالها بالهواء فمنهم من صنف هذا الداء بين الامراض التي تنتقل بالارياح العاصفة والمجاري الهوائية الشديدة ومنهم من قال إن ذرات التراب الملوثة بعامل بفايفر اي عامل النزلة الوافدة لا تنتقل الا الى بعد قليل فهي لا تتمكن والحالة هذه من نقل المرض ومهما يكن فان عامل هذا الداء يلقى كسواه على الطرق العامة مع قشاعات المرضى وبصاقهم .

اما الجدري فان عامله ينتقل بالهواء أيضاً بالذرات الصغيرة الناشئة من مفرزات البثور وفلوسها فانها تتطاير مع الهواء ناقلة المرض . وعامل الجدري شديد المقاومة يلتصق مدة طويلة بالاجسام والاشياء كجدران البيوت والالبسة والاثواب والادوات دون ان يفقد شيئاً من قوته وهذا يبين لنا كيف ان هذا المرض متى دخل بلداً طالت اقامته فيه فينطفي آونة ثم يظهر أخرى دون سبب ظاهر وعدواه تتم غالباً بطريق التنفس .

وهكذا يقال عن الخناق اي الدفتيريا فانها تنتقل بالهواء .

واخيراً الطاعون الرئوي هذا الوباء الهائل الذي يفتك متى انتشر بمئات الالوف والملايين فانه ينتقل بالهواء الى جهاز التنفس ويعتقد كثير من الاطباء ان الحمى الاسبانية التي استولت على اوربا سنة ١٩١٩ ولم يقل عدد ضحاياها عن خمسة ملايين لم تكن الا طاعوناً رئوياً حتى ان حكومة الولايات المتحدة حيث كان تفشي المرض شديداً اجبرت جميع ساكنيها على ان لا يظهروا في الاسواق الا وعلى انوفهم وافواههم خمار مبلل ببعض المواد المضادة للفساد وهكذا تمكنت من حصر المرض وتخفيف وطأته .

ولا تنتشر الجراثيم بالارياح فقط بل تنتشر ايضاً بطرق أخرى منها نفض الطنافس في الشرفات والنوافذ وندف القطن والصوف المحشوة بهما لحف المرضى وفرشهم في المخازن المشرفة على الطرق العامة فيترتب على الحكومة منع مثل هذه الاشياء منعاً باتاً مهما كانت مراعاتها شديدة الصعوبة .

ولكن على الرغم من امتلاء الهواء بذرات الغبار الملوثة وعلى الرغم من استنشاقنا هذا الهواء

ودخول الجراثيم الى اعماق حويصلاتنا الرئوية نرى انتشار الامراض قليلاً لا يناسب كثرة هذه الجراثيم وما ذلك الا لانها تتلف بعد وصولها الى اعماق الرئة فان الطبيعة جعلت الدواء الى جانب الداء ولهذا كانت للمفرزات الشعبية خاصة قاتلة للجراثيم ٠

هذا ما رغبت بطرحه امامكم في هذه المحاضرة من الامور الصحية ومنها تستنتجون ان الطبيعة لم تضن على دمشقنا بجودة الموقع الجغرافي ولا بالارتفاع عن سطح البحر ولا بتركيب أرضها الجيولوجي الموافق ولا بالانهر الغزيرة النافلة مع مياهها خصباً وهواء نقياً ولا بالارياح العاصفة التي تهب الانسان بهبوبها حياة جديدة وانما نحن الذين ضنوا عليها بكل ما يؤثر في هوائها فيصلحه ضننا عليها بالأسواق المتسعة الفسيحة ضننا عليها بالساحات الكبيرة والحدائق الكثيرة ضننا عليها بتنظيف شوارعها من الأوحال الحاضرة او الغبار القتال المقبل ضننا عليها بما هو أعظم من كل هذا وبما لم أبينه في محاضرتي نظراً لضيق الوقت فاذا تفشت الاوبئة فيما بيننا فليس الذنب الا علينا اوساءت الصحة العامة فلا تعود تبعة هذه الاساءة الا الينا فعسى ان يكون المستقبل باسماً لا عبوساً كالماضي فنرى في دمشق حياةً جديدةً تدب في أسواقها حياةً ترقى برقي علم الصحة بين أفرادنا ٠ فعسى ان ينتبه الزملاء الكرام الى سد هذه الثلمة فيكثرون من المحاضرات الصحية فهي لعمري اكثر ضرورة وأعظم فائدة من المحاضرات العلمية والادبية والشعرية وغيرها لانها تحفظ حياة الشعوب ولا تقدم لشعب يحصد منجل الامراض من شبانه الاذكياء النابغين ومن شاباته المهذبات الاديبات فعسى ان يسعدني الحظ في المستقبل فأقوم بواجب يفرضه عليّ الفن الذي أنتسب اليه والقي في ناديكم الموقر من آن الى آخر محاضرات أخرى مختلفة الموضوعات تضمن للسيدات نضارة جمالهن وللشبان قوة عضلاتهم والله الموفق في كل حال ٠

آراء وافكار

ذات الزيتون

« هي الزيتونة »

هل ذات الزيتون هي الزيتونة ؟ ذلك مالاريب فيه البتة . فانا أوافق عليه الاستاذ عارف النكدي كل الموافقة . ولا بأس بان ابسط هنا ما كنت عثرت عليه في هذا الشأن الجغرافي . فقد روى ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك (ص ٧٤ من طبعة ليدن) ان تقديرا لرصافة والزيتونة وكفر تجر والجزيرة الف دينار . وقال المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف (ص ٣٢٢ من طبعة ليدن) ان الرصافة من ارض قنسرين . فلم يبق من ريب في ان الزيتونة تابعة الرصافة وان الرصافة قد كانت من جند قنسرين اي من سورية الشمالية او سورية الفراتية .

وقال البلاذري في كتابه فتوح البلدان (ص ١٧٩ — ١٨٠ من طبعة بريل) اما رصافة هشام فان هشام بن عبد الملك احدثها وكان ينزل قبلها الزيتونة . وقال ياقوت الرومي في معجم البلدان الرصافة في مواضع كثيرة منها رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة بينهما اربعة فراسخ على طرف البرية بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف كذا ذكره بعضهم . قال ووجدت في اخبار ملوك غسان ثم ملك النعمان بن حارث بن الايهم وهو الذي اصلح صهاريج الرصافة وصنع صهريجها الاعظم وهذا يؤذن بانها كانت قبل الاسلام بدهر ليس بالقصير ولعل هشام عمر سورها او بنى بها ابنية يسكنها [1] ... وقد اصاب ياقوت كل الاصابة فقد عرفت الرصافة في العهد الروماني (بسرجيوبوليس) نسبة الى الشهيد سرجيس . قال وقال احمد بن يحيى واما رصافة الشام فان هشام بن عبد الملك احدثها وكان ينزل فيها الزيتونة وقال ياقوت في الزيتونة موضع كان ينزله هشام بن عبدالملك في باديةالشام فلما عمر الرصافة انتقل اليها .

---

(١) ولعل هشام عمرها وقد كانت قبله خربة او مقفرة وهذا ينفض الاشكال من كل وجه كما لا يخفى .

فالزيتونة التي دعاها عبدالرحمن حفيد هشام (ذات الزيتون) هي قريبة من الرصافة (او من قراها) على نهر الفرات الاعظم ٠

قال الرصيف الاستاذ السيد عارف النكدي في محاضرته الرائعة الاندلس (حاشية ص ٣٣٤ من مجلة المجمع العلمي) لم اجد فيما عندي من الكتب مايعرف منه موضع ذات الزيتون ٠ وفي معجم البلدان الزيتونة موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بادية الشام فلما عمر الرصافة انتقل اليها فكانت منزله الى ان مات ٠ ونسأل الاستاذ بعده فهل الزيتونة هي ذات الزيتون ؟ قال ان عبدالرحمن مات ابوه وهو صغير فكفله جده هشام صاحب الزيتونة فلعل الموضعين واحد (وهو الصحيح الذي لا غبار عليه) فيكون عبد الرحمن قد لجأ الى موضع له سابق عهد فيه والله اعلم ٠

واما قول الاستاذ الآخر (او ان ذات الزيتون في جبل حوران المعروف بجبل الدروز) ٠٠٠ فإخاله بعيداً عن الصحة والصواب والذي خدعه قول عبدالرحمن الاموي (ففرّ من الزيتونة او ذات الزيتون الى فلسطين) ٠٠٠

في حين ان عبد الرحمن يقصّ هو نفسه قصة هربه فيقول : انه صار الى قرية على الفرات ذات شجر وغياض ٠ الى ان قال انه دخل بساتين على الفرات فسبق الخيل الى الفرات فسبح فيه ونجا هو بنفسه والخيل ينادونه بالامان وهو لا يرجع وامااخوه فانه عجزعن السباحة في نصف الفرات فرجع اليهم واخذوه فقتلوه ٠ فليس من مجال للشك والتردد بعد هذا القول الواضح في ان الزيتونة او ذات الزيتون كانت على الفرات الاعظم اوقريبة منه في بادية الشام كما قال ياقوت وغيره ٠ واين هذه — وهي على الفرات — من ذات الزيتون في جبل حوران او جبل الدروز كما لا يخفى ٠

وأقف من التحقيق عند هذا الحد فقد ثبت انالزيتونة هي ذات الزيتون وان موقعها على الفرات او هي قريبة منه في بادية الشام و بهذا القدر غنى وكفاية للمتأمل البصير ان شاء الله تعالى ٠

حلب : الخوري جرجس منش
عضو المجمع العلمي

جواب على سؤال

اطلعت على سؤال لحضرة الاستاذ محمد راغب الطباخ عضو المجمع العلمي في الجزء السابع (ص٤٤٠) من مجلة المجمع العلمي المجلد التاسع يسألني فيه عن كتاب (مناقب بغداد) لعبد الرحمن بن الجوزي هل هو مذكور في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب؟ ٠

ثم تصفحت ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب فوجدت فيه ترجمة حافلة لعبد الرحمن ابن الجوزي المذكور تقع في زهاء ٣٠ صفحة بالقطع الكامل وقد ذُكرت فيه مؤلفاته التي تبلغ نحو ٤٠ مؤلفاً ومنها (مناقب بغداد) الذي حصلت الضجة بسببه و بشأن نسبته الى حفيد ابن الجوزي المسمى باسمه وكنيته ولقبه ٠

لهذا لم يبق ادنى شك في صحة نسبة كتاب (مناقب بغداد) الى مؤلفه عبد الرحمن ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ لا الى حفيده المذكور المتوفى سنة ٦٥٤ ﻫ لان النسخة التي اعتمدنا عليها في المراجعة كُتبت في القرن الثامن للهجرة وان ما حققه الاستاذ الشيخ محمد راغب الطباخ هو الصحيح لا شبهة فيه ٠

حسني الكسم

مطبوعات حديثة

تاريخ الموسيقى العربية
« الى القرن الثالث عشر »

A History of Arabian Music
To The XIII th Century

ألف هذا الكتاب القيم باللغة الانكليزية الاستاذ هنري جورج فرمر و بحث فيه عن تاريخ الموسيقى العربية من ايام الجاهلية الى القرن الثالث عشر م . وقد قسم الكتاب الى ستة أبواب : الباب الاول عالج فيه تاريخ الموسيقى في الجاهلية وهي فترة كما لا يخفى غامضة ولكنه مع ذلك جمع ما تشتت في كتب الادب والتاريخ من اخبار الغناء وذكر آلات الموسيقى المعروفة اذ ذاك عند العرب في اليمن والحجاز والحيرة والشام وذكر بعض من عُرف بحسن الصوت .

وذكر في الباب الثاني (الاسلام والموسيقى) واكثر ما عالج فيه حكم الغناء من حيث الاسلام مع ذكر أدلة الاباحة والحظر وما ذهب اليه الائمة الاربعة ثم رأي المتصوفة في السماع وأشار الى من عرف بحسن الصوت ايام النبي عليه الصلاة والسلام .

وصور في الباب الثالث حالة العرب الاجتماعية ايام الراشدين وذكر الفتوح التي تمت على عهدهم واختلاط العرب بالفرس والروم وظهور الغناء العربي المتقن بعد ان كان ضرباً من الحداء والتطريب والنوح وذكر عزوف الخلفاء الراشدين عنه لاشتغالهم بالفتوح وأشار الى من ارتاح اليه من الصحابة كعبد الله بن جعفر وأجمل تراجم المغنين في ذلك الدور كطويس وحنين وعزة الميلاء وسائب خاثر وغيرهم .

قال واما اخذ العرب عن الفرس فلم يكن من حيث القواعد الموسيقية ولكنهم ربما سمعوا النغمة الفارسية فاستعاروها بعد ان عالجوها بالصقل والتهذيب والتعريب . وأحصى اسماء الآلات الموسيقية على اختلافها كالمعزف والمعزفة والمزهر والعود والطنبور والقصبة والمزمار والبوق والقضيب والدف والصنج والطبل .

وذكر في الباب الرابع خلفاء بني أمية واحداً بعد واحد بعد ان أجمل تصوير الحالة

الاجتماعية اذ ذاك وأشار الى ما كان من تنشيط الخلفاء للغناء . وقال ان أثر الفرس في الموسيقى العربية كان في الآلات اكثر منه في الغناء نفسه . وترجم لطائفة صالحة من كبار المغنين في ذاك العهد كابن مسجح وابن محرز وابن سريج والغريض ومعبد وابن عائشة ويونس الكاتب ومالك بن ابي السمح وجميلة وسلامة القس وحبابة وسلامة الزرقاء .

فلما انتهى الى العصر العباسي قسمه الى ثلاثة عصور : العصر الذهبي وهو من سنة ٧٥٠ الى ٨٤٧ م وعصر الانحطاط من ٨٤٧ الى ٩٤٥ وعصر السقوط من ٩٤٥ الى ١٢٥٨ .

قال المؤلف ان قيام بني العباس فسح الميدان للفرس وجعل الفكر الآري يسود الفكر السامي واذ ذاك وقف الفن العربي الخالص وظهر في الشعر العربي اثر للفكر الفارسي . قال واما الغناء العربي فلم تظهر به تلك المؤثرات الا بعد زمن طويل وربما كان منشأ ذلك ان الموسيقيين كانوا صنفاً خاصاً من الناس ممتازين ومنعزلين عن غيرهم فحافظوا على الصبغة العربية في الغناء . قال ومما يستحق الذكر ان مغني العصر الذهبي كانوا عرباً بالعنصر او بالميلاد وجاء اكثرهم من الحجاز وطن الفن العربي .

ثم أجمل موقف خلفاء العصر الذهبي من الموسيقى وتنشيطهم لها قال ومن دواعي تقدمها ميل المأمون لعلوم اليونان وانشائه بيت الحكمة في بغداد وترجمة علوم اليونان ومن جملتها الموسيقى ، وذكر الواثق ونوه بخدمته للفن وقال : بوفاته انقضى عصر الاسلام الذهبي الذي لو قايسنا بين حضارته وبين حضارة اوربا في ذاك الحين لوجدنا حضارة اوربا ليست سوى بربرية . وترجم لكثير من كبار المغنين كاسحق الموصلي وابراهيم بن المهدي وغيرهما .

ولما أتى الى دور الانحطاط العباسي ذكر كيف تفككت عرى المملكة الاسلامية واستقلت اكثر أقطارها في الشرق والغرب تحت طاعة الخليفة الاسمية وأشار الى تلك الدول وأخذها بيد الادب والموسيقى كالدولة السامانية والحمدانية والطولونية والإخشيدية والدول التي قامت في الاندلس . قال : وفي ذاك العصر نبغ ابو الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الأغاني وابن فرناس العالم الموسيقي . وفي ذاك العصر ازداد النفوذ الأعجمي في الثقافة العربية ومنها الغناء . قال : ولكن مهما اقتبس العرب عن الفرس

فهؤلاء مدينون للعرب أضعاف ذلك ليس في الدين فقط بل بالعلوم والفلسفة والفنون الجميلة ·

ومن خصائص تلك المدة الاستعانة بعلوم اليونان فيما يتعلق بالنظريات الموسيقية وشرح المؤلف ذلك شرحاً وافياً ·

ثم ختم كتابه بالعصر الذي دعاه عصر السقوط وذكر أن أسماء الانغام المصطلح عليها في كتاب الأغاني تغيرت وأضحت فارسية مع ان الموسيقي ظلت عربية وأشار الى الدول التي كان لها فضل على الموسيقى كالدولة الفاطمية في مصر والأيوبية في الشام مع الاشارة الى من الف في الموسيقى وترجمة المغنين والمخترعين وما اخترعوه من الآلات كل ذلك باسلوب بارع وترتيب حسن وتفصيل واف · فيا حبذا لو يتاح لهذا الكتاب النفيس من ينقله الى العربية ·

خليل مردم بك

فهرس المكتبة البلدية
« في الاسكندرية »

طبعت بمطبعة شركة المطبوعات المصرية بالاسكندرية
سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٩

هذه الفهرس ترتيب وتصنيف الاستاذ الفاضل السيد احمد ابي علي امين المكتبة المذكورة وهي تشتمل على ثمانية واربعين علماً في ستة مجلدات بقطع هذه المجلة ومجموع صفحاتها ٢٠٤٠ وهي مرتبة ترتيباً حسناً على الحروف الهجائية في كل فن على حدة كترتيب فهرس دار الكتب المصرية وقد وصفت الكتب التي ورد ذكرها في هذه الفهرس وصفاً موجزاً مع ذكر شيء من حياة مؤلفها وتاريخ وفياتهم فجاءت هذه الفهرس حسنة بما فيها من دقة الملاحظة وسهولة المراجعة على الباحث في كل ما يهمه امره ·

فللاستاذ الموما اليه الشكر الجزيل لتوفره على طبع هذه الفهرس التي طالما تاقت النفوس الى وصفها والاطلاع على ما تحتوي عليه من الكتب النفيسة ·

حسني الكسم

اهداء مجموعة مخطوطة

أهدى السيد امين الخانجي الكتبي المشهور الى مكتبة المجمع العلمي مجموعة تتضمن الرسائل المخطوطة الآتية :

(١) (قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن) تصنيف الشيخ مرعي بن يوسف المقدسي الكرمي الحنبلي . فرغ المؤلف من تصنيف كتابه هذا يوم عشوراء سنة ١٠٣٣ في الجامع الازهر .

(٢) (الشجرة المفرعة في المسائل المنوعة) تأليف الشيخ محمد زين العابدين العمري سبط المرصفي ألفه سنة ٩٦٧ هـ وذلك عندما زار السيد البدوي ورُفع اليه عند قبره قرطاس فيه أسئلة شرعية منوعة فأجاب عليها في هذه الرسالة .

(٣) (السبيل المبين في حكم صلة الامراء والسلاطين) وهي رسالة صغيرة للمؤلف السابق بحث فيها عن حكم الجوائز والصلات التي يأخذها العلماء والصوفية من الملوك والامراء .

(٤) (الميثاق والعهد في شرح من تكلم في المهد) تصنيف الشيخ احمد بن ابراهيم البرماوي وهو شرح أبيات السيوطي التي اولها :

تكلم في المهد النبي محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم الخ

(٥) رسالتان للشيخ عثمان النجدي الحنبلي : احداهما في أحكام (ايّ) المشدّدة وإعرابها وبنائها وغير ذلك . والثانية في أحكام (لو) واسم الرسالة (كشف الضو عن معنى لو) .

(٦) كتاب (تحقيق الرجحان بصوم يوم الشك من رمضان) تصنيف الشيخ مرعي ابن يوسف الحنبلي المقدسي الذي سبق ذكره .

(٧) (رفع الاستار المسدلة عن مباحث البسملة) تصنيف الشيخ اسماعيل الغنيمي ابن الشيخ غنيم الجوهري .

(٨) كتاب منتهى العقول في منتهى النقول تأليف الامام السيوطي : فهو يسرد في هذا الكتاب اسماء الاشياء التي بلغت الكمال او العظم او الشدة في امر من الامور

ثم يشرح بالاختصار ذلك الامر الذى امتاز فيه ذلك الشيء . مثال ذلك أن يقول : (منتهى المدائن الاسلامية بغداد) ثم يشرح لك مزاياها على البلاد . و (منتهى الفتن الاسلاميـة فتنة التتر) ثم يشرح ذلك و (منتهي الحشرات عقرب تسمى الجرارة) ثم يصف مبلغ اذى تلك العقرب وهكذا لكن النسخة كثيرة التحريف والتصحيف .

(٩) قصة هرون الرشيد مع الاعرابي وهي مخرومة وليس منها سوى صفحة واحدة .

(١٠) (مكتوب الى هرون الرشيد) يتضمن عظات ونصائح

(١١) (قصة اهل الكهف) تتضمن غرائب وعجائب .

(١٢) كتاب في العقائد اختصره مؤلفه من عقيدة الشيخ عبد الله بن محمد بن محمد ابن احمدان (كذا) ولعل المؤلف المختصر هو الشيخ محمد بن بلبان كما يفهم من هامشة على ظهر الكتاب .

(١٣) رسالة في الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ النواوي . انتهت الرسائل وان المجمع ليشكر للمهدي هديته .

* * *

وأهدي الينا ايضاً كتاب (مبادي علم الهيأة) تصنيف الاستاذ الفاضل جلال امين زريق مدرس الرياضيات في دار المعلمين العليا والمدرسة الثانوية في بغداد . والمؤلف من شبان سورية العاملين في ترقية الأذهان ونشر العلم وقد عرفت الحكومة العراقية قدره فهي تستفيد من معارفه الواسعة في العلوم الرياضية فنلفت انظار المتخصصين في هذه الفنون الى كتابه النفيس .

وكتاب (فتاوى الامام النواوي) المسماة (بالمسائل المنثورة) من ترتيب تلميذه الشيخ علاء الدين ابن العطار . وقد طبع الكتاب على نفقة مكتبة عرفة . بعد ان صحح على ثلاث نسخ خطية وشهرة ابن تيمية ودقيق أبحاثه الدينية في مصنفاته لاتحتاج الى تنويه .

وأهدي الينا (ديوان الوطنيات) لناظمه الشاعر الاديب السيد محمد ناجي الجم الطرابلسي وموضوعات شعره تدور حول الوطنيـة والعواطف والأخلاق وقد زينـه بصور كثير من رجالات العرب وأدبائهم وافتتحه برسم جلالة الملك حسين الذي أهدى الناظم ديوانه اليه .